المحاضرتان 7+8+9

الإنجازات العسكرية

في عصر المماليك

أولاً ــ الحروب مع الصليبيين وإنهاء وجودهم:

وسأتّبع الترتيب الزمني في تحليل معارك المماليك معهم، وهي كالتالي.

1 ــ الحملة الصليبية السابعة:

كانت محاولات الصليبيين تتجه للسيطرة على مصر واسترجاع ممتلكاتهم التي فقدوها في الشام على يد صلاح الدين الأيوبي[i]، بل كانت فلسطين هدفاً رئيسياً للحملات الصليبية المتتابعة، وخاصة بعد أن استعاد صلاح الدين بيت المقدس، فصارت غاية الحملات الأولى الرد على انتصارات صلاح الدين بالسيطرة على بيت المقدس.

ولقد فهم الصليبيون أن السيطرة على بيت المقدس لا تتم إلا عن طريق السيطرة على مصر، وقد أبان ذلك المؤرخ ابن واصل، فقال في أحداث سنة 615هـــ = 1218م: «فاجتمعوا للمشورة، فأشار عقلاؤهم ــ أي الصليبيون ــ بقصد الديار المصرية أولاً، وقالوا: إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر، وتقويته برجالها، فالمصلحة أن نقصد أولاً مصر ونملكها، وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد»[ii]. ويُظهر المؤرخ الغربي أنتوني بردج هذه الحقيقة بقوله: «كانت مصر ... قلعة المسلمين، فإذا تم الاستيلاء عليها فإن جميع مناطق فلسطين الجنوبية بما فيها القدس ستسقط في أيدي المسيحيين دون قتال»[iii]. ولذلك حاولوا السيطرة على مصر من خلال الحملة الصليبية السادسة، وكان ذلك جسراً لسيطرتهم على بيت المقدس الذي تنازل عنه الكامل الأيوبي سنة 626 هـــ = 1228م.

على كل حال؛ في عام 647 هـــ= 1249م، وصلت إلى مصر الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، وكان من أهم أسبابها:

ــ إنزال المسلمين ضربات قاسية بالصليبيين، فصارت باقي معاقلهم مهددة بالخطر والضياع.

ـــ إرسال صليبيّ الشرق الرسل إلى أوربا يستنجدون بهم، وينذرونهم بضياع ممتلكاتهم.

ـــ مساندة البابا أنوسنت الثالث مشروع لويس التاسع في غزو الأراضي المقدسة.

ـــ أراد لويس التاسع أن يحد من التعاون والتبادل التجاري بين الإمارات الإيطالية والمسلمين، متهماً هذه الإمارات بتناسي الأهداف الصليبية التي من أجلها قدموا إلى الأراضي المقدسة(iv).

وفي عام 647 هـــ = 1249م، وصلت إلى دمياط الحملة الصليبية السابعة واستطاعت الاستيلاء عليها، مما أحزن الصالح أيوب كثيراً حتى إنه أقدم على شنق ما يزيد على خمسين أميراً ممن تركوا مواقعهم الدفاعية وهربوا في أثناء الحملة، فأخاف هذا التصرف مماليكه ففكروا بقتله لولا أن نهاهم عن ذلك أحد الأمراء لأن الصالح أيوب كان مريضاً، فانتظروا وفاته التي حلت عام 647 هـــ= 1249م، فكانت وفاته في هذه الظروف الحرجة خسارة كبيرة، وفي ظل هذه الأوضاع ظهرت زوجته شجر الدر، واستطاعت أن تضبط الأمور وأن تخفي نبأ وفاته، وأرسلت في طلب ابنه تورانشاه، وفي مدة غيابه قامت بإدارة أمور البلاد. أما الصليبيون فإنهم توجهوا من دمياط ووصلوا إلى المنصورة وهناك اصطدموا بجيش المماليك البحرية عام 648هـــ=1250م، ووقع قتال شديد انتهى بهزيمة الصليبيين، وأسر قائدهم لويس التاسع(v). وتسبب هذا الانتصار في رفع مكانة المماليك في نفوس الناس فالتفوا حولهم وتناصروا بهم.

2 ـــ أعمال الظاهر بيبرس ضد الصليبيين:

شهدت الإمارات الصليبية منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي ضعفاً داخلياً نتيجة الخلافات الحادة التي نشأت داخل مجتمعهم بين مختلف فئاته، فشغلتهم هذه الخلافات عن الالتفات نحو المسلمين، ولما توطدت دعائم دولة المماليك نتيجة للإجراءات التي اتخذها بيبرس رأى ضرورة متابعة سياسة صلاح الدين الأيوبي وخلفائه في طرد الصليبيين(vi).

فبعد أن تمكن السلطان الظاهر بيبرس من العمل على ترسيخ أركان حكمه والقضاء على منافسيه في الحكم، تفرّغ للعمل على مواجهة الأخطار الخارجية التي تهدد الدولة المملوكية، وأبرزها خطر الصليبيين الذين يسيطرون على عدد من المناطق الساحلية في بلاد الشام، والتي تشكل شوكة في خاصرة الدولة المملوكية، لذلك قرر تحريرها، ففي عام 663هـــ = 1265م فتح قيسارية، ثم دمرها مع قلعتها، وبعد أيام وصل إلى حيفا، وقد فرّ منها معظم الصليبيين فدخلها ودمرها، ثم هاجم قلعة عثليث، وبعدها زحف باتجاه أرسوف التي استسلمت له(vii).

ومن بين تلك المناطق التي حررها بيبرس قلعة صفد التي سلمها الملك الأيوبي الصالح إسماعيل مع الشقيف والعديد من مناطق الجليل للصليبيين سنة 638هـ =1240م. فأرسل بيبرس سنة 664هـ = 1266م مجموعة من المقاتلين بقيادة الأمير علاء الدين أيديكين لحصار صفد، وقام بتفريق العساكر في المنطقة الواقعة بين طرابلس وعثليث، بينما بقي أمام مدينة عكا محاصراً لها، ثم توجه إلى صفد وتولى بنفسه عملية الحصار، وما لبث أن أمر بجلب المنجنيقات من دمشق، ثم أمر جميع القوات الموزعة لقتال القلاع الصليبية بالقدوم للمشاركة في حصار صفد، فبدأت عملية التحرير، ورُميت القلعة بالمنجنيقات، وأحدث النقّابون ثقوباً عديدة في القلعة، واشتدّ القتال واستمر أشهراً، ولما تحولت كفة القتال لصالح المسلمين قام الصليبيون بالاتصال بالسلطان الظاهر بيبرس، وطلبوا الصلح، فاشترط عليهم شروطاً مقابل ذلك، وكان بين المقاتلين في القلعة عدد من المسيحيين المحليين السريان، فقام بيبرس بإعطاء الأمان لهم، فأخذوا يفرون من القلعة، وتحالف مع جماعة منهم على أن يفتحوا له الأبواب.

وأدى هذا إلى اشتداد الخلاف بين الصليبيين والسريان، فراسل الصليبيون المماليك طالبين الأمان، فمنحهم إياه بيبرس، مقابل تسليم القلعة حسب الشروط التي تم الاتفاق عليها في بداية المراسلات، وبدأت عملية إجلاء الصليبيين، الذين أخرجوا معهم الأسلحة والفضيات، وأخفوها في الأمتعة، وأخذوا جماعة من الأسرى المسلمين على أنهم نصارى. فعُدّ ذلك نقضاً لشروط التسليم، فأمر بيبرس بضرب رقابهم على تل قريب من صفد، كان الصليبيون يقتلون فيه أسرى المسلمين، وبعد ذلك قام السلطان بضبط الأوضاع في صفد ونقل الأسلحة إلى قلعتها[viii].

ثم توجه بيبرس نحو تحرير حصني هونين وتبنين القريبين من صفد، وكان له ذلك سنة 665هـ = 1267م، فألحقهما بنيابة صفد، ثم حرر يافا سنة 666هـ = 1268م، ثم قصد بيبرس في السنة نفسها أنطاكية وفاوض المحاصَرين فيها، فلم تؤت هذه المفاوضات ثمارها، وعند ذلك اقتحمها الجيش المملوكي وتمكن من السيطرة عليها غانماً منها غنائم وافرة. ويُعدّ سقوط أنطاكية كارثة حقيقية للصليبيين في بلاد الشام لأنها بحكم موقعها الجغرافي كانت تشكل لهم سنداً قوياً منذ بداية الحروب الصليبية، يضاف إلى هذا أنها أول إمارة صليبية أُسست في الشرق مع الرها، وقد عاشت مئة وواحداً وسبعين عاماً، لذلك عُدّ تدميرها نكسة كبيرة للصليبيين، فضلاً عن أن انهيارها عجّل في انهيار الصليبيين في شمال بلاد الشام[ix].

ثم اتجه بيبرس في السنة نفسها إلى الشقيف، وأمر نائب الشام بالتوجه إليها معه أيضاً، فقاما بفرض الحصار عليها، واشتد الحصار على المتواجدين في القلعة، واستطاع بيبرس بحنكته أن يثير

الخلافات بين الصليبيين ضد بعضهم البعض، فقرروا تسليم الشقيف مقابل حصولهم على الأمان، وبذلك نجح في تحرير هذه القلعة المهمة[x].

ثم توجه بيبرس نحو قلعة القرين سنة 669هـ=1271م ــ التي كانت تشكل منطلقاً للإغارة على نيابة صفد ــ وفرض الحصار عليها، ورماها بالمنجنيقات، إلى أن سقطت، فأخاف سقوطها حاكم صور الصليبي، فقام بمراسلة السلطان الظاهر بيبرس طالباً الصلح، ومتنازلاً عن عشرة بلدان من صور[xi].

وفي عام 669هـ = 1271م أيضاً ظهر الظاهر بيبرس أمام صافيتا، فاستسلمت له، ثم توجه مباشرة نحو قلعة الحصن، وحاصرها ثلاثة أسابيع، ثم دخلها وخضعت له، وبعد حصار دام أسبوعين سقط حصن عكار بيد المماليك، وبذلك أضحى بيبرس على مشارف إمارة طرابلس التي كان ينوي استعادتها، ولم يكن يمنعه عنها سوى وصول حملة صليبية إنكليزية بقيادة ولي عهد إنكلترا إدوارد، وفي الوقت نفسه التمس بوهيموند السادس القائم على إمارة طرابلس عقد هدنة مع المماليك فوافق بيبرس على ذلك، كما أن ولي عهد إنكلترا إدوارد طلب أيضاً توقيع هدنة مع الظاهر بيبرس، فوافقه عليها، وبعد هذه الهدنة توقف القتال بين الطرفين حتى وفاة الظاهر بيبرس[xii].

3 ــ أعمال قلاوون وسلالته.

– تحرير المرقب 684هـ = 1285م:

أقدم قلاوون سنة 682 هـ = 1283م ــ كتمهيد لفتح المرقب ــ على تحرير المناطق التالية: فتح قلعة قطيبا، وفتح حصن الكختا، وفتح مدينة أياس[xiii].

وكانت قلعة المرقب للإسبتارية، وحكمها راجع إلى مقدّمهم في عكا فرير كليام جوان دو مونفرت، وكانت تشكل رأس حربة للصليبيين، ولم يطمع أحد من الملوك السابقين بفتحها. وكان الظاهر بيبرس قد هادنهم سنة 666هـ = 1268م لمدة عشر سنين، وكان الفرنجة الذين بحصن المرقب قد بلغهم هجوم التتار على الحدود الشمالية لدولة المماليك، وانسحاب قواتهم من حلب، فتجرؤوا وآذوا المسلمين، فتوجه المنصور قلاوون لتأديبهم وتهديد من خلفهم من الفرنجة في عكا وطرابلس وأوربا.

لقد هيّأ قلاوون للمعركة جيشاً قوياً ومجهزاً بكل آلات القتال، ولما بدأ القتال ظلت المنجنيقات المملوكية ترمي سور المرقب الحصين على مدى شهر كامل، ثم نجح المهندسون بإحداث

فجوة تحت (برج الأمل) في نهاية الزاوية الشمالية للقلعة، ووضعوا بها الأخشاب سريعة الاشتعال، فأخذ البرج يهوي، و لم يسع رجال الحامية إلا الاستسلام.

وبعد أن استولى قلاوون على حصن المرقب، تفرّغ لحصن مرقيّة في سواحل حمص الذي كان تابعاً لفرسان المعبد الداويّة، فاستطاع هدمه سنة 684هـ = 1285م[xiv].

ـ تحرير اللاذقية سنة 686 هـ = 1287م:

تم سنة 680 هـ = 1281م الاتفاق بين السلطان قلاوون ومتملك طرابلس بيموند بن بيموند على هدنة وشروط؛ منها ما يخص اللاذقية تحديداً، فتم الاتفاق أن تُجبى رسوم وضرائب اللاذقية عن طريق الميناء والبرج، وتُوزع مناصفة بين الطرفين. و كانت اللاذقية آخر ما تبقى من إمارة أنطاكية الصليبية.

وحدث فيما بعد أن اشتكى تجار حلب للسلطان المنصور قلاوون بأنهم لا يرتاحون لإرسال بضائعهم إلى الميناء الصليبي في اللاذقية، ثم وقع زلزال في اللاذقية ألحق ضرراً بأسوارها، فوجد السلطان أن الفرصة قد تهيّأت لتحريرها، عندها أعلن صاحب طرابلس أن هذه المدينة مشمولة بالهدنة لأنها تابعة لأنطاكية، وليس لطرابلس. ويبدو أن قلاوون لم يعترف بذلك إذ أرسل الأمير طرنطاي لاحتلالها، فسقطت بيده من دون عناء[xv].

ـ تحرير طرابلس سنة 688 هـ = 1289م:

كان تحرير طرابلس من آخر الأعمال العسكرية الحاسمة التي قام بها السلطان المنصور قلاوون، وكان قد احتلها الصليبيون سنة 502هـ = 1108م بعد حصار دام عدة سنوات. وقد أجمع المؤرخون المسلمون على أن سبب مهاجمة السلطان لطرابلس، رغم وجود المعاهدة أو الهدنة، كان بسبب غدر أهلها بالتجار والمسلمين ومخالفتهم شروط الهدنة.

وكان بيموند السادس أمير طرابلس منذ سنة 659هـ = 1260م وراء استدعاء المغول إلى الشام والاتفاق معهم على التنكيل بالمسلمين، وصار المماليك يتحيّنون الفرصة المناسبة لتأديبه، فما كان من بارتلميو صاحب جبيل ورئيس كومون طرابلس إلا أن استنجد بالسلطان قلاوون ضد خصومه الصليبيين، فجاءت الأساطيل الصليبية لنجدة طرابلس ولكنها وصلت متأخرة، إذ هيّأ السلطان المملوكي المنصور قلاوون جيشه سنة 688هـ = 1289م، وباشر بحصارها ناصباً عليها 19 منجنيقاً، وكان عدد الحجّارين والزرّاقين الذين يقذفون النيران 1500 نفر، واقتصر الحصار على جهة الشرق فقط، لأن البحر كان يحيط بها من باقي الجهات.

وبعد أن دمرت المنجنيقات عدة أبراج هرب البنادقة بعد أن شحنوا سفنهم بأغلى ما عندهم، و أقلعوا خارج الميناء، ثم تبعهم الجنويون، الأمر الذي أثار الذعر في صفوف الصليبيين. ثم أمر قلاوون بشّن الهجوم العام، ودخل المماليك المدينة، فاندفع الصليبيون نحو السفن وهربوا، فتحررت طرابلس بعد 185 سنة من الاحتلال الصليبي[xvi].

ـــ تحرير مدينة عكا آخر المعاقل الصليبية في بلاد الشام:

يعدُّ تحرير عكا من المواقع الفاصلة في التاريخ العربي الإسلامي، ويقاس بأهمية معركة حطين سنة 583هـــ = 1187م أو معركة المنصورة سنة 648هـــ = 1250م، فتحريرها أدى إلى تحرير الساحل الشامي بأكمله من الصليبيين.

وقد سقطت هذه المدينة بيد الصليبيين سنة 497 هـــ = 1104م، ثم أصبحت ميناء مملكة بيت المقدس الرئيسي، وتوالت عليها أعمال البناء والتحصين على مدى أكثر من ثمانين عاماً، ثم حررها الناصر صلاح الدين سنة 583 هـــ = 1187م عقب معركة حطين، ثم استولى عليها الصليبيون سنة 587هـــ = 1187م بعد حصار وقتال شديدين داما قرابة ثلاث سنوات. فصارت قلعة حصينة وقاعدة رئيسية للصليبيين؛ إذ كان خط أوربا ـــ قبرص ـــ عكا هو شريان الأمل والحياة للصليبيين في الشام، ولذلك فإن انهيار عكا كان يعني انهيار القاعدة العسكرية الشامية بالنسبة للصليبيين.

وقد عقد الطرفان المملوكي والصليبي هدنتين؛ الأولى سنة 670هـــ =1272م، والثانية سنة680هـــ =1281م[xvii]. إلا أن هذه الهدنة نُقضت في سنة 689هـــ =1290م؛ بوصول حملة صليبية إلى عكا، فكان ذلك من أهم أسباب توجه المماليك نحو تحريرها، فلقد وصلت حملة صليبية من إيطالية، قام فيها الصليبيون بذبح كل من كان داخل مدينة عكا من التجار المسلمين الذين قصدوها في ظل الأمان المعطى لهم بعد عقد الصلح بين السلطان المنصور قلاوون والصليبيين، فلما رأى السلطان قلاوون ملابس ضحايا المسلمين مضرجة بالدماء، استشاط غضباً، وكان قد عزم على الحج، فقدّم الجهاد عليه، وأعد لذلك عدته، فأرسل الصليبيون يعتذرون إليه، وقالوا إن الأمر كان عربدة وسكراً بين مسلمين ونصارى، ومن جهتنا فقد شنقنا النصارى، فردّ عليهم قلاوون: «صدقتم، أنتم شنقتم، ولكن شنقتم المسلمين، ونحن واصلون بمشيئة الله تعالى إليكم، فجهّزوا الضيافة»، فرفض الاعتذار، وأعلن الحرب على الصليبيين، و لم يكد يفرغ من الاستعدادات

الحربية ويغادر القاهرة لحربهم حتى أدركه أجله سنة 689هـــ=1290م بعد أن أمضى زهاء ثلاثين عاماً في محاربة الصليبيين والمغول أميراً وسلطاناً.

وعندما استلم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون المهمة بدأ يستعد لفتح عكا، فأنفذت حكومة عكا من جديد سفارة إلى الملك الأشرف للتعزية بوفاة والده ومحاولة تجديد الصفاء القديم، وكانت برئاسة فيليب ماينبيق ـــ وكان يحسن العربية ـــ، لكن الأشرف رفض مقابلة الوفد، بل أدخلهم السجن.

وقد حملت استعداداته سكان مدينة عكا الصليبيين إلى توجيه استغاثات عاجلة إلى أوربا الغربية، فوصل إليها عدد من الفرسان الإنكليز وغيرهم. وكان عدد الجيش المملوكي كما قدّره المؤرخون 60 ألفاً من الفرسان و160 ألفاً من المشاة، وفاق عدد المتطوعة هذا العدد، وكان يتقدمهم 92 منجنيقاً تم تجهيزها في دمشق.

وأخذت المنجنيقات الإسلامية تقذف عكا ليل نهار، واستمر الحصار والرمي حتى هُدمت أعالي الأبراج، وتمكنت القوات المملوكية من إحداث عدة نقوب في الأسوار، وفي يوم الجمعة 17 جمادى الأولى 690 هـــ = 18 أيّار سنة 1291م أمر الملك الأشرف بالهجوم العام على عكا، فتزلزلت المدينة ومن فيها، ثم اقتحمها الجنود وهم يكبرون ويهللون، فهرب الفرنج، وفُتحت المدينة بعد حصار دام أربعة وأربعين يوماً.

بعد ذلك قامت القوات المملوكية بفتح المراكز القليلة الباقية بأيدي الصليبيين مثل صور وصيدا وعثليث وأنطرطوس وجبيل وبيروت[xviii].

ـــ النشاط الصليبي بعد تحرير المماليك عكا:

إن الصليبيين لم ييأسوا من العودة إلى الشرق، وهذا واضح في مشاريعهم وطموحاتهم التالية، وأهمها مساعي البابوية؛ إذ أخفق الصليبيون في الحفاظ على أسلابهم والدفاع عن مدينة عكا، ولذلك كان على أوربا أن تبحث عن أسباب إخفاقها في مواجهة العرب المسلمين، حينها نشط عدد كبير من بابوات وملوك وأمراء ودعاة أوربا للتضييق على السلطنة المملوكية، فاتبعوا في ذلك عدة طرق، منها:

ـــ ضرورة ضرب مصالح النشاط التجاري لدولة المماليك بفرض حصار اقتصادي عليها.

ـــ التحالف مع المغول للاشتراك معاً في الهجوم على بلاد الشام ومصر للقضاء على دولة المماليك.

ـــ بعث مشاريع صليبية جديدة، إلى درجة أن سُمي القرن الثامن الهجري = الرابع عشر الميلادي وخصوصاً النصف الأول منه بعصر التبشير والدعوة لإحياء الحروب الصليبية، وهذا سرد لنماذج سريعة من هذه المشاريع:

– تحريضات ثاديوس النابوليتاني: الذي دعا في إلى حرب صليبية جديدة، من خلال كتابة الحوادث التي تثير مشاعر الكاثوليك ضد العرب والمسلمين.

– مشروع فادنزيو: تضمن مشروعه الذي رفعه إلى البابا فرض حصار بحري على مصر بأسطول مكون من مئة سفينة حربية.

– خطوات مارينو سانودو: تحدث عن ثلاث خطوات كان يراها مناسبة للقيام بحملة صليبية ناجحة ضد المماليك[xix].

– في سنة 707 هـــ = 1307م كان في آفنيون (مركز البابا الجديد) مقدم الداوية ومقدم الإسبتارية، فطلب منهما البابا تقديم خطط عملية للقيام بحملة صليبية جديدة، فاقترحا احتلال الساحل الشامي وفرض حصار اقتصادي على دولة المماليك، وقد ردّ السلطان الناصر بإرسال حملة بحرية نحو ملطية في شمال بلاد الشام سنة 715 هـــ = 1315م بقيادة نائب دمشق المشهور الأمير تنكز الناصري الذي استطاع فتحها[xx].

ومشاريع أخرى كثيرة غير التي ذكرناها.

4ـــ تحرير الساحل الشامي:

ـــ تحرير صور: عندما توجّه الملك الأشرف خليل إلى تحرير عكا، جهّز جماعة من الجند ووجههم نحو صور، فلما فُتحت عكا وعلم أهل صور بذلك، هربوا وأخلوا صور، فسيطر عليها المماليك سنة 690هـــ = 1291م[xxi].

ــ تحرير صيدا: لما قرر المماليك تخليصها من الصليبيين، توجه الأميران علم الدين سنجر الشجاعي نائب دمشق ومعه زين الدين كتبغا لحصارها، إلى أن حرروها سنة 690هــ = 1291م[xxii].

ــ تحرير حيفا: احتلها الصليبيون ثلاث مرات، إلى أن جاء الأشرف خليل وحررها نهائياً سنة 690هــ = 1291م[xxiii].

ــ تحرير بيروت: احتلها الصليبيون مرتين، وكان أهل بيروت في هدنة مع المسلمين، لكنهم فيما بعد آووا من هرب من الفرنج من عكا وغيرها، فخالفوا شروط الهدنة، كما طُلب منهم أن يضموا مراكبهم إلى مراكب المسلمين أثناء حصار عكا، فرفضوا، ففُرض عليهم حصار بحري، ثم أخُرجوا منها سنة 690 هــ = 1291م، وحرر المماليك القلعة[xxiv].

ــ تحرير عثليث: احتلها الصليبيون مرتين، وفي سنة 690هــ = 1291م ــ وهي سنة الانهيار العام للصليبيين ــ هرب سكانها، فهدم المسلمون الحصن وحرروها[xxv].

ــ تحرير جبيل: احتلها الصليبيون مرتين، فلما سقطت عكا أمر السلطان الأشرف خليل بتهديم قلعة جبيل وأسوارها، ثم جاء الأمير علم الدين الشجاعي فسوّاها بالأرض في شعبان سنة 690هــ = 1291م.

ــ تحرير طرطوس: احتلها الصليبيون مرتين، ثم هاجمها الأمير المملوكي بلبان الطباخي في عهد الأشرف خليل سنة 690 هــ = 1291م، فهرب أهلها إلى جزيرة أرواد، ودخلت الجيوش المملوكية المدينة[xxvi].

ــ تحرير أرواد: وهي آخر معقل للصليبيين في الشام، و قاعدتهم التي يحاولون منها العودة إلى احتلالها، كما اجتمع بها كثير من الفرنج وبنوا فيها سوراً وتحصنوا، وكانوا يقطعون الطريق على المسلمين، فقرر المماليك تحريرها وجهّزوا حملة لذلك، وعُين الأمير جمال الدين آقوش العلائي قائداً عاماً للحملة، التي قاتلت حتى استطاعت فتح الجزيرة في المحرم من سنة 702هــ = 1303م، ووصل الخبر إلى دمشق، فدقت البشائر فيها ثلاثة أيام[xxvii].

5ــ الحملة الصليبية على الإسكندرية:

بعد أن تولى بطرس لوزينيان عرش قبرص سنة 760هـ= 1358م، قام بخطوة جريئة تمثلت برحلته إلى الغرب سنة 763هـ=1362م سعياً لإشعال حرب صليبية ضد المماليك. وقد اختار هذا الملك وجهة حملته الصليبية مدينة الإسكندرية مع أن هدفه كان بيت المقدس، ونستطيع أن نستنتج غاياته من ذلك بمايلي:

ـ إنّ الملك بطرس كان يتوق إلى استعادة ميراثه العائلي في مملكة بيت المقدس.

ـ كان يدرك أن المماليك أو الأتراك لو سيطروا على البحار فيعني ذلك وقوع جزيرة قبرص تحت رحمتهم.

ـ موقع الإسكندرية الفريد في الطرف الشمالي للساحل الإفريقي، وهو موقع هيأ لها الاتصال السهل بين قارات العالم القديم الثلاث، وأضفى عليها مكانة خاصة من الناحية التجارية.

ـ اعتقاد الصليبيين أنه من العسير من الناحية العملية غزو بلاد الشام ما لم يكن ثمة قاعدة لهم على الساحل.

ـ ما كانت تعانيه مصر من ضعف تمثل بعدم الاستقرار السياسي بسبب صغر سن السلطان شعبان، وضآلة حامية المدينة، وفيضان النيل وما نتج عنه من غمر الدلتا بالمياه، وانتشار وباء الطاعون.

على كل حال؛ جهّز الملك بطرس جيشه عدة وعدداً، ثم أصدر أوامره بالتوجه نحو الإسكندرية، وبعد عدة محطات استغرقت خمسة أيام لاحت سفن الأسطول الصليبي لأنظار أهالي الإسكندرية، فظنوها سفناً تجارية، ثم أدركوا حقيقتها، فقاموا بتعزيز أسوار مدينتهم وأبراجها، ثم بدأ الملك بطرس أولاً بهجوم بحري، واستطاع اقتحام المدينة بوحشية بالغة رغم المقاومة الشديدة، وقتل جنوده ما يزيد عن العشرين ألفاً، وعاثوا فساداً في المدينة. عندها وصل جيش القاهرة بقيادة الأمير قطلوبغا المنصوري، فانضم إليه يلبغا الخاصكي، فما كان من الصليبيين إلا أن فروا بأسطولهم هاربين نحو جزيرتهم[xxviii].

6ـ فتح المماليك لقبرص:

بعد أن كثرت هجمات القبارصة على موانئ السلطنة المملوكية في مصر وبلاد الشام، قرر السلطان الأشرف برسباي غزوهم في عقر دارهم ليضع حداً لتلك الاعتداءات المتكررة التي ظن القبارصة من خلالها أن دولة المماليك ضعيفة، وليؤمّن تجارة مصر في المتوسط.

وكان فتح قبرص على ثلاث مراحل: حملة استكشافية ناجحة، ثم حملة ثانية نجحت ثم انسحبت، ثم حملة ثالثة حققت النصر والفتح المبين.

فوجّه السلطان الأشرف برسباي سنة 827هـ= 1424م حملته الأولى لغزو جزيرة قبرص، وكانت حملة استكشافية صغيرة، وصلت إلى الشاطئ القبرصي جنوبي ميناء ليماسول، واتجهت الحملة بعد ذلك إلى ميناء ليماسول، وبعد قتال أصبحت ليماسول مشرعة الأبواب أمام المسلمين فدخلوها وسيطروا عليها، ثم أقلعت سفن المماليك من السواحل القبرصية فوصلت إلى مصر بعد شهرين من العام نفسه محملة بالغنائم والأسرى، ومحققة أهدافاً عديدة من أهمها: معرفة مدى ضعف القبارصة وضعف إمكاناتهم العسكرية والمادية، وأن القيادة القبرصية كانت داعمة ومؤيدة لأعمال القراصنة على السواحل العربية الإسلامية(xxix). وهذه الحملة شجعت على القيام بالحملة الثانية.

لذلك ما إن عادت الحملة الأولى منتصرة حتى أمر السلطان الأشرف برسباي ببناء سفن جديدة لتشكيل حملة ثانية في سنة 828 هـ= 1425م، وبعد أن تم تجهيز السفن وشحنها بالمؤن والأسلحة، غادرت الحملة الشواطئ المصرية باتجاه سواحل بلاد الشام، فاتجهت أولاً إلى بيروت حيث انضمت إليها السفن التي تم بناؤها هناك، ثم اتجهت نحو طرابلس، ثم قررت الإبحار إلى قبرص، وعليها الآلاف من جنود البر والبحر ورماة النفط، وبعد أربعة أيام وصلت الحملة إلى ميناء قرباص على الساحل الشمالي الشرقي لجزيرة قبرص، ثم تحركت من هناك جنوباً إلى ميناء فاماجوستا (الماغوصة)، حيث خيّمت هناك.

ثم أقلعت السفن المملوكية جنوباً إلى ناحية الملاحة (لارناكا)، فاعترضها أسطول قبرصي، فدارت معركة بحرية عنيفة انتهت بهزيمة القبارصة وفرارهم في عرض البحر تحت وطأة قذائف السفن المملوكية. ثم نزلت قوات المسلمين إلى بر الملاحة لمقاتلة الجيش الذي أرسله الملك جانوس بقيادة أخيه إلى هناك، فانتصروا عليه وقتلوا وأسروا عدداً كبيراً من أفراده، كما نهبوا الملاحة والقرى المجاورة حتى ضاقت مراكبهم عن حمل الأسرى، وامتلأت أيديهم بالغنائم، وبعد ذلك توجه جيش المماليك إلى ليماسول جنوباً، وأنزلوا ما يقارب من مئة وخمسين من المقاتلين استطاعوا أن

يستولوا على حصن المدينة، على الرغم من قوته ومناعته، ورفعوا على قصرها الراية السلطانية، ثم فضّل وقرر الجميع العودة إلى مصر بعد هذه الانتصارات التي أحرزوها والغنائم الثقيلة التي حملتها السفن(xxx).

وعلى الرغم من نتائج حملة الأشرف برسباي الثانية على جزيرة قبرص، وتحقيقها قدراً كبيراً من الانتصارات، فإن ذلك لم يثنه عن التوجه لحملة ثالثة (829 هـــ= 1426م)، ويبدو أن ذلك يعود للأسباب التالية:

ــ لم تحقق الحملة الثانية الاستيلاء على قبرص.

ــ لم تقض على الوكر الذي اتخذه القراصنة مركزاً لهم لمهاجمة البلاد العربية الإسلامية.

ــ تحريض مدينة جنوة لبرسباي ضد ملك قبرص جانوس لوزينيان بسبب عدائهم له.

ــ استنجاد بعض الشعوب الإسلامية من الأتراك على شاطئ آسيا الصغرى بدولة المماليك لحمايتهم من عدوان القبارصة.

ــ وصول أنباء تفيد أن ملك قبرص جدّ في عمارة قوته البحرية، واستنجد بملوك غرب أوربا، و عزم الجميع على المسير إلى شواطئ السلطنة المملوكية(xxxi).

وهنا أعلن برسباي الجهاد العام في جميع أنحاء بلاده، واستجاب لندائه أعداد غفيرة من الناس من مصر وبلاد الشام، وكان خروج الحملة الثالثة من الشواطئ المصرية إلى قبرص مباشرة دون المرور بموانئ الشام.

أقلعت المراكب الإسلامية من الإسكندرية، ثم تابعت سيرها باتجاه قبرص إلى أن وصلتها، فرست السفن عند ليفادن على شاطئ أفذيمة على بعد بضعة أميال من ليماسول، فنزلت القوات البرية إلى البر وضرب الجند خيامهم في أرض الجزيرة، وبقيت القوات البحرية في السفن على أهبة الاستعداد لمواجهة أي هجوم بحري مفاجئ.

وأسرعت القوات البرية بمهاجمة مدينة ليماسول، واستمرت المعركة ست ليالي متتالية تمكن المماليك بعدها من فتح قلعة ليماسول، وشرعوا في هدمها وتخريبها. ثم بدؤوا بالاستعداد للزحف

براً لمنازلة ملك قبرص بعد أن سمعوا من البنادقة أن الملك جانوس استعد في خمسة آلاف فارس وسبعة آلاف راجل، وكان جانوس قد قصد خيروكيتا الواقعة في الشمال الشرقي من ليماسول وعسكر في سهل متسع استعداداً للقاء المماليك(xxxii).

فعزم المماليك على الزحف إلى داخل الجزيرة للاستيلاء على عاصمتها نيقوسيا، واستقر الرأي بينهم أن ينقسموا في زحفهم إلى قسمين، قسم بري بقيادة الأمير تغري بردي المحمودي، وقسم بحري بقيادة الأمير إينال الجكمي، على أن تسير القوات البرية بمحاذاة القوات البحرية كي لا تتعرض السفن لهجوم الأسطول القبرصي في غياب الجيش، وأن يكون اجتماع القسمين بميناء الملاحة.

ولا شك أن هذه الخطة التي ضمنت دوام القرب والاتصال بين الجيش والأسطول كانت ناجعة، وأثناء مسير القوات البرية المملوكية نحو الملاحة، ظهر لهم الملك جانوس على رأس قواته عند خيروكيتا الواقعة فيما بين ليماسول والملاحة. وفي هذا المكان دارت بين الفريقين موقعة حاسمة انتهت بهزيمة القبارصة وأسر ملكهم جانوس مع أعداد كبيرة من أفراد قواته، و قُتل أخوه في ميدان المعركة، وقيل إن جملة من قُتل من الصليبيين في ذلك اليوم بلغ ستة آلاف.

وبعد مسح المنطقة عسكرياً توجّه الأمير تغري بردي على رأس قواته البرية إلى العاصمة نيقوسيا، فيما استمر الأمير إينال الجكمي على رأس السفن في الملاحة لحفظ جانب البحر. ثم دارت معركة بحرية بين الطرفين وانتهت بانتصار المسلمين وأسرهم لإحدى السفن القبرصية، بينما فرّت باقي سفنهم إلى عرض البحر بعد أن قُتل من بحارتها ما يزيد على مائة وسبعين.

و لم يجد المماليك بعد ذلك صعوبة في دخول مدينة نيقوسيا عاصمة قبرص، حيث طلب أهلها الأمان، فأمّنهم الأمير تغري بردي، ثم فتحوا المدينة، فدخلها وأمر أن يُنادى في أنحاء البلاد بالأمان(xxxiii)، ودخل تغري بردي القصر الملكي فوجد به من الأمتعة ما لا يحصى، وأذّن المسلمون لصلاة الجمعة على صوامع الكنائس، فأقاموا بها الصلاة(xxxiv).

لقد كانت نتائج فتح قبرص عظيمة للغاية، إذ أدت إلى تدمير القوة البحرية القبرصية، ووضعت حداً لأعمال القرصنة والاعتداءات على سواحل دولة المماليك، وأكدت تلك الحملات على قدرة الأسطول والسلاح المملوكي على خوض أشد المعارك وأعتاها عند الحاجة.

وصارت دولة المماليك سيدة الموقف في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وطورت النشاط التجاري المملوكي بعد القضاء على قراصنة قبرص، ووسعت العلاقات البحرية مع المناطق الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية والدول والممالك الأوربية، خاصة الإيطالية منها[xxxv].

7ـ محاولة المماليك فتح رودس:

كان للدولة المملوكية أسباها الواقعية التي دفعتها للتوجه عسكرياً نحو جزيرة رودس، ويمكن تلخيص هذه الأسباب بمايلي:

ـ تعد رودس من الجزر الهامة في شرق البحر المتوسط حيث تمتاز بموقعها الاستراتيجي الممتاز خاصة وأنها تتوسط قارات العالم الثلاث.

ـ لم يبقَ من فلول الصليبيين في الشرق الأدنى ـ بعد فتح جزيرة قبرص في عهد السلطان المملوكي الأشرف برسباي وإخضاع آل لوزينيان ـ سوى دولة الفرسان الإسبتارية في جزيرة رودس.

ـ توجه قبرص ورودس نحو التعاون السياسي والتضامن الحربي المشترك ضد المسلمين والمماليك في مصر وبلاد الشام وآسيا الصغرى.

ـ بعد أن عقد الإسبتارية معاهدة مع الدولة المملوكية، لم يلتزموا بما أخذوه على أنفسهم تجاه هذه الدولة، فما لبثوا أن عادوا إلى القرصنة والاعتداء وإرسال الجواسيس إلى سواحل مصر وبلاد الشام لمعرفة نوايا السلطنة المملوكية ضد جزيرة رودس، وأقاموا الحصون والأسوار والأبراج لحماية جزيرتهم.

ـ تشجيع السلطان العثماني مراد الثاني (824-855هـ =1421-1451م) السلطان المملوكي الظاهر جقمق على غزو جزيرة رودس ليصرف الفرسان الإسبتارية إلى الدفاع عن جزيرتهم بدلاً من الانضمام إلى الحلف الصليبي الذي أخذت بعض الدول المسيحية تعمل على تأليفه لمقاومة الفتوح العثمانية التي كانت قد بدأت في بلاد البلقان وأوربا الشرقية لنشر تعاليم الإسلام[xxxvi].

إزاء ذلك كله كان لابد للسلطان الظاهر جقمق أن يقوم بعمل كبير وحاسم ضد فرسان الإسبتارية، فبدأ يعد العدة لغزو جزيرة رودس، حيث أرسل إليها ثلاث حملات على التوالي، وهي كما سيأتي.

فبعد أن أتم الأسطول الإسلامي المملوكي استعداداته الحربية أبحر من ساحل بولاق سنة 844هـ=1440م إلى مدينة دمياط، ثم اتجه إلى جزيرة قبرص للتموين، ثم تابع إبحاره باتجاه ميناء العلايا على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى حيث انضمت إليه سفينتان مشحونتان بالمقاتلين.

ثم وصلت الحملة إلى جزيرة رودس، ورست السفن بالقرب من الرأس الرملية بأقصى الشمال من الجزيرة، حيث لمس المماليك الاستعدادات الكبيرة للفرسان الإسبتارية لمواجهتهم، وقبل أن يبدأ الأسطول المملوكي باقتحام جزيرة رودس وجّه قائد الحملة رسالة من السلطان الظاهر جقمق إلى حاكم الجزيرة، ولكن ملك رودس لم يوافق على محتوى الرسالة، ورد عليها بهجوم مفاجئ على الأسطول المملوكي، فاضطرت السفن المملوكية إلى التراجع في وسط الليل، ووقعت في صبيحة اليوم التالي معركة بحرية بين الفريقين على مقربة من ساحل آسيا الصغرى، ولم تكن نتيجتها حاسمة، فتراجعت الحملة بعد أن استطاعت الخلاص من قتال الروادسة، دون أن تتمكن من اقتحام جزيرة رودس من أي جهة[(xxxvii)].

ثم كانت الحملة الثانية، وكانت أسبابها كالتالي:

ـــ فشل الحملة المملوكية الأولى التي أرسلها السلطان الظاهر جقمق.

ـــ إغارة أهل رودس على ساحل بيروت، وسلبهم لمركب مشحون بالبضائع، و أسرهم لعدد من المسلمين.

ـــ وصول الأخبار إلى القاهرة بأن صاحب جزيرة رودس قد استنجد ببعض ملوك الفرنج وأخذ يستعد للحرب[(xxxviii)].

وهنا قام السلطان جقمق بإرسال حملة استطلاعية إلى رودس سنة 846هـ = 1443م قوامها خمس سفن لتأتيه بالأخبار الدقيقة عن مدى استعداد أهلها للدفاع عنها وما اتخذوه من وسائل التحصين، فقام الروادسة بإنفاذ وفد إلى السلطان المملوكي لطلب الهدنة، إلا أن السلطان

خاف أن يكون ذلك مجرد خداع يهدف إلى إفشال غزو الجزيرة، فشرع سنة 847هـ= 1443م بإرسال حملته الثانية، وأبحر الأسطول من ساحل بولاق تحت قيادة الأمير إينال العلائي الناصري والأمير تمرباي.

وقد أدى التكتم الشديد من قبل المماليك على هذه الحملة إلى إفزاع أهالي ليماسول عند وصولها إلى شواطئهم، لذا فقد أسرعوا مع حاكمها إلى الهرب بما استطاعوا حمله من المتاع، فظنت القوات المملوكية أن هناك خيانة مدبرة من أهل ليماسول، وأن القبارصة خرجوا على الطاعة ونقضوا العهد، إلا أن ملك قبرص حنا الثاني تدارك الموقف عندما أنفذ الرسل إلى المماليك، وأبلغتهم بأن المؤن المطلوبة تنتظر الحملة في بلدة بافوس، وتقدم الرسل إلى القائد إينال العلائي بالاعتذار عن هروب أهل ليماسول.

وبعد أن أمضت الحملة المملوكية مدة زمنية قصيرة في جزيرة قبرص، سارت من ميناء بافوس واتجهت إلى أنطاليا الواقعة على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى، وهي من الموانئ التركية الإسلامية الصديقة للمماليك، ثم أبحرت الحملة صوب جزيرة رودس ووصلت إلى قشتيل الروج (بجوار ساحل آسيا الصغرى الجنوبي) التابعة للإسبتارية في رودس، فرست هناك على مرأى من الحامية الإسبتارية، ثم نزل المماليك إلى البر وضربوا الحصار على حصن قشتيل الروج، وبعد قتال عنيف مع الصليبيين نجحوا في اقتحام الحصن، وتوّجوا نصرهم بدخول المدينة.

وعلى الرغم من هذا الانتصار الأولي الذي حققه المماليك فإنهم لم يواصلوا حملتهم على رودس بسبب حلول فصل الشتاء، فقرر الأمير إينال تمضية الشتاء بثغر ماكرى بشاطئ آسيا الصغرى، وهو الذي يرجح أن تكون تبعيته وقتذاك للدولة العثمانية أو لغيرها من أصدقاء الدولة المملوكية بشرق البحر المتوسط، لكن الزوابع والأعاصير التي اشتدت في تلك المنطقة دفعت الحملة إلى العدول عن تلك الخطة، وقررت الذهاب إلى جزيرة قبرص، ثم اضطرتها الرياح الغربية إلى العدول عن ذلك أيضاً، عندها توغلت في جزائر الفرنج، فعصفت بها الرياح والأمطار، فاجتمعت الآراء على العودة إلى الديار المصرية دون أن يواصل المماليك حملتهم على جزيرة رودس خوفاً من هيجان البحر وعدم موافقة الرياح، وبالفعل عاد الأسطول إلى مصر، بعد رحلة دامت ما يقارب خمسة أشهر[xxxix].

وعلى الرغم من فشل الحملتين السابقتين اللتين أرسلهما السلطان الظاهر جقمق على جزيرة رودس فإنه قام بتجهيز حملة ثالثة، وبعد أن اكتملت تجهيزاتها، أقلعت من ساحل بولاق سنة 848هـ= 1444م إلى الإسكندرية ودمياط، ثم أقلعت من هذين المينائين واتجهت إلى طرابلس، وانضمت إليها بعض القوات الشامية التي كانت تنتظرها هناك، وأبحرت بعد ذلك مباشرة إلى جزيرة رودس دون أن تمر بقبرص وآسيا الصغرى خلافاً لما جرت عليه العادة في سير الحملتين السابقتين، ولما وصلت الحملة إلى رودس، دُهشت من استعدادات أهلها للقتال، فقد حصّنوا أبراجهم بالآلات والسلاح والمقاتلة بحيث صارت في غاية من الحصانة، فأقام المماليك آلات الحصار على وجه السرعة ونصبوا المجانيق والمكاحل على أبراجها، ثم نشب القتال بين الطرفين، واستمر عدة أيام، مما أدى إلى مقتل عدد كبير من رجال الطرفين تحت وابل القذائف المتبادلة بينهما.

وأثناء ذلك وصلت إلى أهل رودس نجدة بحرية من غرب أوربا، فقاموا بهجوم مفاجئ على الأسطول المملوكي بعدد كبير من المراكب، فبرز إليهم القائد المملوكي يلخجا الناصري ومن معه، وقاتلوهم قتالاً عظيماً في معركة بحرية عنيفة استطاع من خلالها يلخجا أن يرد الروادسة وحلفاءهم مدحورين مهزومين.

وفي الوقت نفسه كانت المعارك البرية بين المماليك والروادسة تدور رحاها على أرض الجزيرة بشكل عنيف، ومع ذلك فإن مدينة رودس لا يزداد أمرها إلا قوة ومنعة لعظم استعداد أهلها للقتال، إلى أن استطاع الجيش المملوكي إحداث ثغرة كبيرة على أحد أسوارها، وعند ذلك قرر فرسان الإسبتارية الهجوم لئلا تنفذ إليهم جيوش المسلمين المحاصرة لهم وتقاتلهم في عقر دارهم، وخرجت الإسبتارية من وراء الأسوار إلى خارج مدينتهم، ودارت معركة حامية ثبت فيها الطرفان، إلى أن رجحت كفة الروادسة في القتال، وتغلبوا على المماليك الذين اضطروا إلى رفع الحصار عن مدينة رودس.

وعندما وصلت أخبار الصعوبات التي واجهت الحملة المملوكية في رودس إلى السلطان الظاهر جقمق، سارع إلى إرسال النجدة والمدد لمساعدتها، إلا أن هذه النجدة لم تلبث أن قفلت راجعة إثر رجوع الحملة إلى الموانئ المملوكية بعد الواقعة المذكورة.

والآن وعلى الرغم من فشل الحملات على رودس؛ فإنها حققت نتائج عظيمة، إذ رسمت مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب عبر البحر المتوسط، وأدت لإجبار الصليبيين على عقد الصلح وذلك بعد أن تم غزوهم في عقر دارهم[xl].

وآخراً؛ رغم أن الحروب الصليبية المعلنة قد انتهت، ولكن حلّت محلها فيما بعد حروب صليبية غير معلنة هي أخطر وأضر من الأولى.

ثانياً ــ الحروب مع المغول.

ــ التعريف بالمغول وحكامهم:

قبل أن نباشر في الدخول إلى معارك المماليك مع المغول، لا بد أن نتعرف على تاريخ هؤلاء الذي شغل الدنيا، ولا بد أن نعرف كيف قامت هذه الدولة ومن هم أبرز حكامها؛ كي نفهم حروبهم مع المماليك، ولذلك ارتأيت أن أضع ملخصاً عن دولة المغول (599-807هــ = 1203-1405م).

فقد برز اسم المغول لأول مرة في أواخر القرن السادس الهجري ومطلع السابع = الثاني عشر الميلادي ومطلع الثالث عشر عَلماً على إمبراطورية واسعة، وأسرة حاكمة تتزعمها (وقبل ذلك يلف تاريخهم الغموض)، ثم استُعمل فيما بعد اسماً لأمة، وكانوا يعرفون من قبل باسم التتر، وكانوا في الأصل من سكان الغابات، ويقطنون أطراف غابات سيبيريا ومنغوليا الخارجية على شواطئ بحيرة بايكال، ولم يكونوا من سكان السهوب الرحل على الرغم من أنهم أول ما عُرفوا في التاريخ عُرفوا بتحركهم السريع على ظهور الخيل، ثم تحركوا نحو الصين وروسيا نتيجة تكاثرهم السكاني، وقد قاد هذه الحركة التوسعية زعيم مغولي ديناميكي هو جنكيزخان.

وهذه لمحة عن أبرز ملوكهم:

ــ جنكيز خان بن يسوجاي (فترة حكمه 599 – 624هــ = 1203 – 1227م) (ت 624هــ = 1227م): لم يظهر المغول بشكل حقيقي جلي وواضح إلا بظهور جنكيز خان الذي أسس على مدى عشرين عاماً أوسع إمبراطورية شهدها العالم.

ــ مانجو خان بن تولوي بن جنكيز خان (فترة حكمه 646 – 655هــ = 1248 – 1257م) (ت 655هــ = 1257م): قسّم المملكة على إخوته وأقاربه من آل جنكيز خان، فكانت إيران من حصة أخيه هولاكو، وعين أخاه كوبيلاي خان حاكماً عاماً على بلاد الصين.

ــ كوبيلاي خان بن تولوي بن جنكيز خان (فترة حكمه 655 – 693هــ = 1257 – 1294م) (ت بعد 693هــ = 1294م): كان شديد الاهتمام بشؤون بلاد الصين، ولذلك اتخذ بكين حاضرة لملكه بدلاً من قره قورم، ثم وزع جيوشه في بلاد الروس وآسيا وتركستان، وفي عهده استقل هولاكو ببلاد فارس والشام وآسيا الصغرى، وسقطت بيده مدينة بغداد.

ــ هولاكو بن تولوي بن جنكيز خان (فترة حكمه 650 – 663هــ = 1252 – 1265م) (ت 663 هــ = 1265م): ومنذ توليه قيادة المغول شغل فترة قيادته بالحروب الطويلة، فاستولى على عدد من الممالك مثل بلاد خراسان وفارس وأذربيجان والعراق والشام والجزيرة وديار بكر وغيرها.

ــ أبغا بن هولاكو: (فترة حكمه 664 – 681هــ = 1266 – 1283م) (ت 681هــ = 1283م): حاول أن يؤلف جبهة مشتركة ضد المماليك فيها الأرمن والكرج والصليبيين والسلاجقة والبيزنطيين، ولكن حنكة الظاهر بيبرس أفشلت عليه كل شيء.

ــ أحمد بن هولاكو: (فترة حكمه 681 – 683هــ = 1283 – 1284م) (ت683هــ = 1284م): وكان اسمه تكودار، وقد نُصِّر وسُمي نقولا، غير أنه كان يميل إلى الإسلام، فلم يكد يتولى العرش حتى أعلن إسلامه واتخذ لنفسه اسم أحمد، وأرسل إلى القاهرة يطلب الصداقة مع سلطان المماليك قلاوون ويخبره بإسلامه، فهنّأه قلاوون ورضي بالصلح، ثم وجّه أحمد اهتمامه لأن يحمل التتار على اعتناق الإسلام، ولكن الساخطين عليه لإسلامه التفوا حول أرغون بن أبغا حاكم خراسان الذي قام يطالب بملك أبيه، واتفقوا فيما بينهم على خلع أحمد وتوليته، وتم لهم ذلك، وقتلوا أحمد.

ــ أرغون بن أبغا: (فترة حكمه 683 – 690هــ = 1284 – 1291م) (ت 690هــ = 1291م): حاول أن يقيم تحالفاً أوربياً صليبياً ضد المماليك.

ــ غازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو (فترة حكمه 695 – 703هـ = 1296 – 1304م) (ت 703 هـ = 1304م): سار على سياسة من سبقه من قادة المغول في بسط نفوذهم على بلاد الشام، ولذلك قضى فترة طويلة في محاربة سلاطين المماليك، أعلن غازان اعتناقه الدين الإسلامي سنة 694 هـ = 1295م، وتسمى باسم محمود، وأعلن معه الإسلام الآلاف من أمرائه وجنوده.

ــ أحمد بن أويس (فترة حكمه 781 – 795هـ = 1379 – 1393م) (ت بعد 795هـ= 1393م): وحدث أن ظهر في زمانه تيمورلنك، وبدأ غزواته وتغلب على خراسان، ثم تقدم نحو العراق واستولى على بغداد، فهرب أحمد بن أويس إلى سلطان مصر المملوكي وطلب نجدته، ولكن لم ينجح.

ــ تيمورلنك بن طرغاي (فترة حكمه 771 – 807هـ = 1369 – 1405م) (ت 807هـ = 1405م): وكانت أهم حروبه مع العثمانيين ومع المماليك، فهزم العثمانيين وأسر سلطانهم بايزيد، وهزم المماليك واكتسح مدن حلب وحماه ودمشق، وتوفي وهو في طريقه لغزو الصين[xli].

وفيما يلي أستعرض أبرز معارك المماليك مع المغول.

1ــ عين جالوت:

بعد استيلاء المغول على بغداد عام 656هـ = 1258م، قصد هولاكو الشام، فوصل إلى حلب ودخلها ودمّرها، ثم توجه إلى حماة ومن هناك قصد دمشق واستولى عليها وعلى سائر الشام، وتابع الجيش المغولي زحفه نحو الغرب وأخذ يعد العدة للهجوم على بيت المقدس تمهيداً للهجوم على مصر، فوجّه هولاكو عام 658هـ=1260م إنذاراً إلى المظفر قطز، كله تهديد ووعيد وإنذار بالويل لسلطان مصر المملوكي، إن هو لم يخضع ويعترف بسلطان المغول ويستسلم له، فما كان من قطز إلا أن عقد اجتماعاً عاجلاً مع أمراء دولته بحثوا فيه هذا الموقف الخطير، فأجمع الحاضرون على قتل الرسل والسير لمواجهة المغول، فأمر قطز باعتقال رسل المغول وضرب رؤوسهم، وفي تلك الأثناء غادر هولاكو بلاد الشام متوجهاً إلى عاصمته بعد أن سمع بقيام صراع على السلطة هناك من جهة، ولخوفه على أملاكه في إيران من جهة أخرى، موكلاً قيادة الجيش للقائد كتبغا[xlii].

وبعدها وضع قطز ــ الذي اشتهر بالبراعة السياسية ــ خطة عسكرية محكمة تتضمن مايلي:

ـــ تدعيم الجبهة الداخلية وتعبئة الرأي العام استعداداً لخوض المعركة.

ـــ المباشرة بالاستعدادات العسكرية.

ـــ استقطاب الأمراء الأيوبيين والمماليك بهدف توحيد الصف العربي الإسلامي في بلاد الشام ومصر تحت قيادة واحدة.

ـــ إرسال قوة استطلاعية بقيادة الظاهر بيبرس لدراسة الموقف على الأرض، وقد اصطدمت هذه القوة مع الحامية المغولية الموجودة في غزة، وطاردت أفرادها حتى نهر العاصي.

ـــ عسكر قطز بعد ذلك في منطقة الحدائق الواقعة خارج عكا عدة أيام.

ـــ ثم تهادن قطز مع الصليبيين، الذين استاؤوا من المغول لمهاجمتهم مدينة صيدا ونهبها، فعرضوا على قطز أن يمدوه بقوات من عندهم، ولكنه شكرهم وطلب منهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وهددهم إذا اعتدوا على مؤخرة جيش المسلمين أن يعود إليهم ويقاتلهم قبل أن يقاتل المغول.

ـــ ثم توجه قطز نحو عين جالوت البلدة اللطيفة التي تقع بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين، فوصلها في يوم الجمعة 25 رمضان من عام 658هـــ=1260م، واشتبك الجيشان المملوكي والمغولي، وبعد قتال شديد مرير انجلت المعركة عن نصر رائع للمماليك، وقُهر المغول، وقُتل قائد جيشهم كتبغا.

ـــ وبعد انتصار المماليك في عين جالوت توجه قطز مباشرة نحو دمشق ودخلها، ثم سيطر على سائر بلاد الشام من الفرات إلى حدود مصر.

ـــ ثم استناب نوابه على كل من دمشق وحلب وحماة والمعرة والسلمية والساحل وغزة، موسعاً بذلك الأراضي والبلاد التي يسيطر عليها المماليك ومحققاً وحدة بلاد الشام ومصر من جديد[(xliii)].

وكان لهذه المعركة نتائج هامة للغاية، أبرزها أنها ثبتت حكم دولة المماليك في مصر والشام، وكنا قد تحدثنا عن ذلك ضمن عوامل قيام دولة المماليك، **وهذه أبرز نتائج هذه المعركة**:

ـــ كانت معركة عين جالوت من المعارك الحاسمة في التاريخ العربي والإسلامي لما ترتب عليها من نتائج مهمة أبرزها اعتراف الأيوبيين بالحكم المملوكي، وقد تحدثنا عن ذلك ضمن عوامل قيام دولة المماليك.

ـــ أعادت الوحدة بين مصر وبلاد الشام بعد تمزيقها من قبل ورثة صلاح الدين الأيوبي الذين أضاعوا أمجاده.

ـــ أدت هذه المعركة إلى ظهور دولة المماليك قوية أمام باقي قوى العالم آنذاك، فأصبحت دولة يحسب لها حساب، ويهابها القريب والبعيد. وأظهرت هذه المعركة المماليك القوةَ الأساسيةَ في الشرق.

ـــ لقي المغول ـــ لأول مرة في تاريخهم في الشرق ـــ هزيمة حاسمة، وبذلك قضى المماليك على الخرافة التي تقول إن المغول لا يغلبون.

ـــ أنقذت هذه المعركة العرب والإسلام والمسلمين وأوربا من أعظم خطر، لأن المغول كانوا ماضين في زحفهم.

ـــ أدى انتصار المماليك إلى احتفاظ مصر بحضارتها ومدنيتها على عكس ما حدث لبغداد من الدمار والخراب.

ـــ أصبحت مصر والشام ملجأ العلماء والأدباء، وتحدثنا عن ذلك ضمن عوامل قيام دولة المماليك.

ـــ أدت هذه المعركة إلى رفع معنويات الجيش المملوكي إلى أقصى حد، فلم يكن هذا الجيش قبل معركة عين جالوت شيئاً يذكر، فهو لم يخض معركة مهمة كهذه المعركة من قبل، ولم يكن قد زج في قتال لاختبار جاهزيته وقدرته الحربية، ففي معركة المنصورة اشترك بصورة غير موحدة مع الأيوبيين، في حين برزت عبقرية قادته وكفاءتهم الحربية في هذه المعركة أمام جيش روّع العالم ووُصف بأنه لا يقهر، فكانت هذه المعركة سبباً في تشجيع الجيش المملوكي ودفعه على فتح بقية الجهات الأخرى والتصدي للصليبيين وغيرهم من القوى الخارجية والسيطرة الكاملة على الساحل وعلى الأراضي الشامية والمصرية.

ـــ وأدت تلك الطموحات والمعنويات إلى ازدياد حجم الجيش المملوكي بعد هذه المعركة، وتعددت تشكيلاته القتالية، فأصبح في عهد الظاهر بيبرس ثلاثة جيوش: أحدها في مصر، والثاني في دمشق، والثالث في حلب، وبلغ عدده (40000) مقاتل، وبلغ في عهد الملك الناصر محمد (150000) مقاتل، ثم تطور هذا الجيش فأصبح يضم قوات مركزية في مصر وقوات احتياطية، ودخل في قوامه جيوش القبائل العربية والتركمان والأكراد، ووصل العدد إلى (357000) مقاتل. هذا من حيث العدد، أما من حيث العدة، فقد طرأ تطور كبير على نوعية الأسلحة واختصاصات الجنود، فبنيت الجسور والترع، وتطور سلاح النفط والنيران وتنوعت المواد الحارقة، وتنوعت الأسلحة الكيميائية من قنابل دفاعية وهجومية، وتطور سلاح المدفعية تطوراً ملحوظاً، وكذلك

السلاح البحري، وغير ذلك من الأسلحة والأنظمة التي طرأت على الجيش المملوكي، مما تحدثنا عنه بالتفصيل في بحث الجيش المملوكي.

ـــ وأخيراً تعد معركة عين جالوت معركة فاصلة؛ لأنها فتحت تاريخاً جديداً لدولة المماليك، ومهدت لسلسلة من الغزوات ضد الصليبيين والمغول والأرمن والغرب الأوربي[xliv].

2ـــ الظاهر بيبرس والمغول:

انقسم المغول إلى قسمين؛ مغول فارس بزعامة هولاكو، ومغول القفجاق أو القبيلة الذهبية، ونبدأ مع مغول القفجاق، وهم الذين انتشر الإسلام بينهم، وخاصة في عهد بركة خان الذي اعتنق الدين الإسلامي، فما كان من الظاهر بيبرس إلا أن استغل ذلك، وأقام علاقات طيبة مع بركة خان، وحرّضه على قتال قائد مغول فارس هولاكو، وأثمرت هذه العلاقة الطيبة عن عقد معاهدة بين الطرفين، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، إذ سرعان ما انضم الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن إلى هذا التحالف، ثم انضم إليه أيضاً سلطان السلاجقة عز الدين كيكاوس. فأمّن بيبرس بذلك ظهره من جهة مغول فارس، وتفرغ لقتال الصليبيين[xlv].

أما مغول فارس، فكانت سياستهم عدائية اتجاه المماليك، وارتبطت بسياسة الصليبيين والأرمن، فبدأت تحركاتهم العدائية، فهاجموا (في عهد آباقاخان) مدينة الرحبة سنة 665هـــ = 1266م، ثم أغاروا على الساجور، ثم تحالفوا مع الصليبيين ضد المماليك، وأتبعوا ذلك بغزو عينتاب وحارم، ولكن بيبرس استطاع دحر هذه الهجمات وانتصر على مغول فارس عند الرها وحران.

وفي عام 671هـــ = 1272م هاجم جيش مغولي سلجوقي مشترك البيرة، وحاصروها حصاراً شديداً، ولما علم بيبرس بذلك خرج إلى حمص، ثم توجه نحو البيرة، ويبدو أنها استعصت على المغول ففكوا الحصار عنها وقفلوا راجعين، لكن مؤخرة جيشهم اصطدمت مع القوات المملوكية وتعرضت للدمار والأسر، واستطاع بيبرس دخول قلعة البيرة، ثم غادرها إلى مصر.

ومن أبرز المعارك التي انتصر فيها بيبرس على مغول فارس معركة البستان (شرقي قيصرية في آسيا الصغرى)، إذ كان يطمع بضم بلاد الروم، وفي عام 674هـــ = 1275م توافر لبيبرس عوامل جعلته يتوجه نحو تحقيق ذلك، فالسلاجقة كانوا في حالة ضعف، وكذلك الأرمن، وقد خضعت أنطاكية للمماليك، في حين انكمش الصليبيون في إمارات متباعدة.

لذلك أراد بيبرس أن يستغل هذه الظروف المواتية، فخرج من القاهرة على رأس جيش كبير سنة 675هـــ = 1277م متوجهاً إلى دمشق ثم إلى حلب، ثم عبر ومرّ بعدة مدن، وانتصر على

طليعة مغولية وأسر كثيراً من أفرادها، عندها وصلت أنباء تحركات بيبرس في بلاد الروم إلى مسامع آباقا، فأصدر أوامره إلى القوات المغولية والسلجوقية بالتحرك إلى البستان للتصدي لها، ووقعت المعركة بين الطرفين سنة 675هـــ = 1277م، وكانت معركة حامية الوطيس، إلى أن انجلت عن نصر للمماليك وهزيمة ساحقة للمغول وحلفائهم، ثم دخل بيبرس قيصرية وجلس على عرش السلاجقة(xlvi).

3ـــ قلاوون وسلالته والمغول:

ظلت العلاقة جيدة بين المماليك ومغول القفجاق في عهد المنصور قلاوون، وتبادل الطرفان الرسل والهدايا(xlvii). والتحول الجديد هنا؛ هو تحول مغول فارس إلى مهادنة المماليك، وقد حدث ذلك بعد تحولهم إلى الإسلام، وخاصة في عهد الإيلخان أحمد تكودار، الذي أرسل وفداً إلى المنصور قلاوون راسماً من خلاله سياسة تعاونية جديدة بين الدولتين، لكن المغول لم يبتهجوا لهذا التعاون، فتآمروا على أحمد وخلعوه من العرش، وولوا عليهم الأمير أرغون، وكان ذلك سنة 683هـــ = 1284م، وأقدم أرغون على اضطهاد المسلمين، وحرمهم من الوظائف، فأدى ذلك إلى حالة من الغضب والاستياء من جانب دولة المماليك، التي لم تكن تستطع وقتذاك الاصطدام مع المغول لانشغالها بالخلافات الداخلية، وانهماكها بتحرير الشام من الصليبيين(xlviii).

وهذه أهم معارك قلاوون وسلالته ضد المغول.

أ ـــ معركة حمص:

وكان من أسباب هذه المعركة أن المغول تحججوا باعتداء الأمراء الموالين لدولة المماليك عليهم، وكان من أسبابها أيضاً خيانة الأمير سنقر الأشقر، الذي كاتب أبغا محرضاً إياه على القدوم إلى الشام واحتلالها، فأرسل آباقا خان قوة استطلاعية سنة 679 هـــ = 1280م استطاعت أن تحتل عينتاب وبغراس ودربساك وحلب، وارتكبوا فيها أعمالهم الوحشية المعتادة، فبادر السلطان قلاوون إلى التحرك من القاهرة متوجهاً إلى الشام، ثم دخل دمشق في المحرم من سنة 680هـــ = 1281م، ومنها كاتب الأمراء والحلفاء لإرسال العساكر والاستعداد للمعركة. وظهرت حنكته العسكرية لما حالف الصليبيين في عكا وطرابلس لفصلهم عن مغول فارس وتحييدهم.

وكان الرأي أن تكون المعركة في مرج الزنبقية قرب دمشق، ثم عُدّل لأن معظم القوات العسكرية كانت قريبة من حمص، ولذلك قرّر السلطان التوجه شمالاً نحو حمص التي أصبحت مركزاً عاماً لتجمع الجيوش العربية الإسلامية والعربان والمتطوعين. و خرج إليها بجيوشه من دمشق، وعندما وصلها راسل منها سنقر الأشقر واستطاع أن يستتيبه ويستميله إليه.

وبعد أن جهّز قلاوون جيشه للقتال، ورتّبه ووضع الخطط، بدأت المعركة في رجب من سنة 680 هـــ = 1281م، وبعد قتال شديد انجلت المعركة عن نصر للمماليك، وهرب المغول المنهزمين نحو سلمية وحلب والفرات.

تعد معركة حمص إحدى المعارك الكبرى في تاريخ الشرق الأدنى ومصيره، إذ لو انعكست نتيجة المعركة لوقعت مصر في أيدي المغول[xlix].

وفي عهد الأشرف خليل ظل المغول ينفذون سياسة التحالف مع القوى المحلية والأوربية ضد المماليك، فالتفت السلطان الأشرف خليل لهم، وجهّز جيشاً استطاع من خلال فتح قلعة الروم سنة 691هـــ = 1292م، وغيّر اسمها إلى قلعة المسلمين[l].

ب ــ معركة مجمع المروج:

حدثت هذه المعركة سنة 699هـــ = 1299م، إذ تواترت الأخبار من حلب في السنة التي قبلها بعزم غازان على دخول الشام، فتجهّز السلطان الناصر محمد بن قلاوون لقتاله، وخرج من مصر متوجهاً إلى دمشق، وتعرض لمؤامرة في الطريق تهدف إلى التخلص منه، فاستطاع القضاء عليها، ثم غادر دمشق متوجهاً إلى حمص، فأعلمه كشّافته أن التتار قد نزلوا في سلميّة، فتحرك باتجاههم والتقاهم عند مجمع المروج (المعروف بوادي الخازندار بين حمص وحماة) شرقي حمص، وكانت أعدادهم قرابة 100000 فارس، بينما كان عدد جيش الناصر 25000 فارس.

وبدأت أحداث المعركة ما بين كر وفر وهزيمة ونصر، إلى أن انتصر فيها المغول، وصادر غازان الخزينة السلطانية بكاملها في حمص فتقوى بها هو وأصحابه. ثم انسحب المنهزمون إلى دمشق، فدخلها غازان، وانطلق المغول في أحياء دمشق وغوطتها يقتلون ويهدمون ويحرقون ويغتصبون، بينما ظلت قلعة دمشق صامدة. ثم وصل المغول إلى الأغوار وبيسان ونهبوها، وهتكوا الأعراض، ثم أغاروا على بيت المقدس والخليل و غزّة وأذلوا أهلها، وقتلوا من الرجال من قتلوا[li].

ج ــ معركة شقحب:

كان غازان يطمع بتحقيق نصر حاسم على المماليك، وهذا ما لم يتحقق له في معركة مجمع المروج، لذلك قرر خوض معركة أخرى، مستغلاً الأوضاع السائدة المتمثلة بالهلع والقلق والخوف من المغول، فهرب كثير من أهل الشام إلى مصر والحجاز واليمن. فتحرك في سنة 700 هـــ = 1300م قطلو شاه (أو قتلغ شاه) قائد المغول نحو الشام، ثم وصلت الأخبار بأن غازان نفسه قد عبر الفرات وعسكر في موقع صفين، ثم تقدم نحو حلب وعاث في الشمال فساداً، ودخل المعرّة

وشيزر وأنطاكية وغيرها وأسر عدداً كبيراً من المسلمين، وخلال هذه الأخبار المأساوية؛ تعرض جيش غازان لعواصف ثلجية قاسية أودت بمعظم جنوده وخيوله، فعبر الفرات إلى بلاده قافلاً.

وفي سنة 702 هـــ = 1303م، تحرك غازان من تبريز بجيشه الذي كان يناهز التسعين ألفاً، ووصل إلى الرحبة على الفرات، ومن هناك أرسل خطابات تهديد لأمراء الشام، ثم توجه إلى حلب، ثم عاد فجأة إلى بلاده وعهد إلى قطلو شاه بقيادة الحملة، وأقام في العراق يتابع الأخبار، وكان جيش المماليك مجتمعاً في حماة عند نائبها الملك العادل كتبغا، فعمد قطلو شاه إلى إرسال 4000 من جنوده خلف خطوط المماليك، فاحتلوا قرية القريتين، ثم تواجه الجيشان عند موقع الكوم، وبعد معركة حاسمة انتصر المماليك وأبادوا معظم الجيش المغولي. فعادت المعنويات إلى الجيش المملوكي وإلى أهل الشام، واستبشر الجميع بالخلاص من المغول[lii].

ووضع حكام الشام خطة فيما بينهم، تتلخص بالاجتماع في دمشق ومواجهة التتار في ضواحيها، وبالفعل اجتمعوا في مرج الصُفّر جنوب دمشق ينتظرون السلطان، الذي غادر القاهرة متوجهاً إليهم، ودخل الأمير بيبرس الجاشنكير من مصر إلى الشام، وثبّت الناس ومنعهم من مغادرة المدينة. وعاش الناس في دمشق في قلق عظيم إذ استيقظوا فلم يجدوا أثراً للجيش، ووجدوا طلائع المغول في نواحي عدرا، وحاول العلماء تهدئتهم، وعبر المغول من أطراف المدينة نحو الجنوب واجتمعوا في شقحب بالقرب من مرج الصُفّر جنوبي دمشق.

فالتقى الأمراء بالسلطان الناصر محمد عند عقبة شحورا ــ بين دمشق والكسوة ــ واتفقوا على لقاء المغول عند شقحب تحت جبل غباغب من أرض مرج الصُفّر، فوقف السلطان في القلب ومعه بيبرس الجاشنكير وسلار، ووقف حسام الدين لاجين في الميمنة، والأمير سيف الدين قبجق بالعربان وعساكر حماة في الجناح الأيمن من الميمنة، أما الميسرة فوقف فيها الأمير بدر الدين بكتاش الفخري وقراسنقر وغيرهما.

وبدأت المعركة عندما هجمت جحافل المغول كالسيل، وكانت خطتهم تقضي توجيه ضربة قاضية إلى الميمنة تؤدي لانهيار القلب ومعه الميسرة كما حصل في مجمع المروج، لكن الذي حصل أن الميمنة ثبتت ثباتاً عظيماً وقاتلت قتالاً شديداً. ثم حدث أن انهزم جنود الميمنة لما قُتل قادتهم، فتبعهم المغول وهرب الناس وظن الجميع أن المغول انتصروا، فاعتصم قطلو شاه بالجبل ظاناً أنه انتصر، فتفاجأ بمنظر الجيش المملوكي الإسلامي وكتائبه الثابتة وأعلامه الخفّاقة، فجرى اللقاء الثاني بين الطرفين، وقاتل المماليك بضراوة، فتقهقر المغول إلى الجبل فأدركهم العطش، فخرج لهم المماليك فاندفعوا نحو النهر فسقطوا في مستنقع الوحل، وقُتل معظمهم ولاذ من بقي بالفرار. ثم

نزل السلطان الناصر بالقصر الأبلق، فخرجت دمشق لاستقباله عن بكرة أبيها، و لم يتخلف أحد حتى الصبيان والنسوان، وكانت فرحة لا يُمكن وصفها، ثم سافر إلى القاهرة، وهناك خرج الناس إلى لقائه، وأقيمت الزينات في أنحاء مصر.

وأهم ما في معركة شقحب أنها آذنت بأفول نجم غازان، الذي توفي كمداً وهو في ريعان الشباب، إذ لم يكن قد تجاوز الثالثة والثلاثين من عمره[liii].

4ـ المماليك وتيمورلنك:

كانت نشأة تيمورلنك مشبوهة، فقد بدأ حياته كقاطع طريق يسرق الأغنام، فأُصيب بسهم في فخذه أثناء إحدى السرقات، وأصابه الجرح بالعرج، فأُضيف إلى اسمه تيمور كلمة (لنك) ومعناها الأعرج، فصار يُسمى بتيمورلنك، ومن خلال لصوصيته تعرف على الأمراء والقادة العسكريين، واستطاع جمع قوة عسكرية تأتمر بأمره، وبدأ يشتهر منذ عام 761هـ = 1360م، ثم استطاع في سنوات قليلة أن يؤسس دولة واسعة الأرجاء، فغزا فارس والعراق وأذربيجان والخزر وأرمينيا وبلاد الكرج، ثم أخضع بلاد الفولغا ووصل إلى موسكو، وسيطر على الهند وبلاد الأفغان، وكان ذلك بين عامي 782- 801هـ = 1381 – 1398م[liv].

وما يهمنا أن تيمورلنك أصبح بهذه الغزوات متاخماً لدولة المماليك الجركسية، فوصلت غزواته إلى مسامع السلطان الظاهر برقوق، الذي عقد مجلساً حربياً بعد سيطرة تيمورلنك على الرها وملطية وآمد وسيواس، وقرر إرسال حملة استطلاعية إلى حلب سنة 789هـ = 1387م.

وبما أن دولة المماليك شكلت ثقلاً سياسياً وعسكرياً ودبلوماسياً في المنطقة، فإن ذلك أدى إلى اعتراف الإمارات المحيطة بها بالطاعة لها، ولذلك بدأت الرسائل تصل إلى السلطان المملوكي من ماردين وتبريز وغيرهما، ثم أرسل السلطان العثماني بايزيد الأول مبعوثاً إلى برقوق يعرض عليه التحالف لصد الخطر التيموري، ويعلمه أن الإمارات التركمانية المحيطة بدولة المماليك من الشمال أعلنوا طاعتهم له.

ويظهر من تحركات برقوق أنه لم يبد في ذلك الوقت أي جدية في مقاومة تيمورلنك، مع عدم إهماله لمراقبة تحركاته، وبات يرسل حملات استطلاعية دورية من أجل ذلك. وقد حاول تيمورلنك استقطاب السلطان المملوكي، فأرسل إليه عدة سفارات فحواها الدخول في مفاوضات تُنظم العلاقات بين الطرفين، فعد برقوق ذلك خداعاً وروغاناً، فأقدم على قتل الرسل، فقرر

تيمورلنك مهاجمة أعداءه منفردين خشية أن تتوحد جهودهم مع المماليك والعثمانيين، فاستولى سنة 796هـ = 1394م على ماردين، ثم اقتحم أرمينيا وأذربيجان وشمالي البحر الأسود.

وحين وصلت أنباء هذه التحركات إلى برقوق، سارع إلى تجهيز جيش كبير قاده بنفسه، وعقد لذلك مجلساً حربياً أصدر تعليمات بتجنيد كل شيء من أجل هذا الجيش، ثم توجه إلى دمشق ودخلها، وطلب من نواب الشام أن يتوجهوا إلى مناطق الحدود ويحصنوها، عندها، وبدلاً من أن يتوجه تيمورلنك إلى بلاد الشام توجه نحو الشمال، مبدياً عدم رغبته في مواجهة المماليك في معركة مكشوفة، لعلمه بتحالفهم مع العثمانيين وتشكيلهم قوة كبيرة، فتوجه بدلاً من ذلك نحو الهند[lv].

وبعد وفاة برقوق وتسلم ابنه فرج ابتهج تيمورلنك، وغيّر من استراتيجيته، فغادر الهند وتوجه إلى بغداد واستولى عليها سنة 802هـ = 1399م، ثم تمكن من دخول سيواس وملطية، وبعد ذلك أرسل رسالة استعلائية إلى السلطان فرج طالباً منه أن يطلق سراح قائد جيشه أطلمش، ولكن نائب حلب لما وصلت إليه الرسل أمر بسجنهم بناء على تعليمات السلطان فرج، فأثار ذلك غضب تيمورلنك، فزحف باتجاه بلاد الشام، واستسلمت له البهسنا من أعمال حلب وكذلك عينتاب، وبدأ يُراسل نواب الشام ليدخلوا في طاعته.

ويجب أن نشير هنا إلى أن السلطان فرج لم يكن يمتلك أي حنكة سياسية أو فهم لواقع تطور الأحداث، فلم يقدم على إعداد قوات كافية تتصدى لتيمورلنك، وإنما اكتفى بحشد قوات نيابات الشام في حلب، مع عدم تنظيمها عسكرياً كما ينبغي، ثم اكتفى بإرسال حملة استطلاعية إلى بلاد الشام للوقوف على أخبار تيمورلنك، وقد أحس نواب الشام بعظم خطر زحف تيمورلنك، فكتبوا بذلك إلى السلطان فرج، ومع ذلك لم يستجب لهم بالخروج إلى حربه، فاعتمدوا على قواهم الذاتية.

فبدأ تيمورلنك يسيطر على القرى التي في ظاهر حلب سنة 803هـ = 1400م، ثم حاصر المدينة حصاراً شديداً، واستماتت أهلها بالدفاع عنها، ثم خرج جيش النواب خارج المدينة ودخلوا في معركة شديدة مع جيش تيمورلنك، الذي استطاع في النهاية دخول حلب واستباحها شهراً كاملاً[lvi]. ثم استطاع تيمورلنك ــ بواسطة ابنه ميرانشاه ــ أن يسيطر على حماة وحمص وبعلبك واستباحها جميعاً.

كانت نية تيمورلنك هي التوجه نحو دمشق، والتي وصلها الفارون من المدن الأخرى، كما انتقل سكان الضواحي إلى داخلها للاحتماء بأسوارها، وأُصيب الجميع بالخوف والذعر وخاصة أن

تيمورلنك بدأ يرسل رسائل التهديد إلى حكام دمشق وأهلها، فقرر البعض الفرار والهروب باتجاه الجنوب والجبال، وهرب البعض الآخر إلى بيت المقدس وإلى مصر. ولكن المخلصين ظلوا في المدينة للدفاع عنها، وحصّنوها، وأطلق القضاة فتوى بوجوب قتال تيمورلنك، ومع ذلك تأخر السلطان فرج في الخروج إلى دمشق وأظهر تخاذلاً عجيباً، بل إنه حين وصل بجيشه إلى غزة أقام فيها أربعة أيام بدلاً من أن يتوجه مسرعاً باتجاه دمشق، وأخيراً وصلها.

أما تيمورلنك، فإنه واصل تقدمه من سهل البقاع، ووصل إلى قطنة، ثم تقدم نحو داريا وأقام معسكره فيها مطوقاً دمشق من الجنوب، وأثناء تقدمه كانت تحدث اشتباكات جانبية، وكان تيمورلنك يراسل السلطان فرج عارضاً عليه الصلح خداعاً، ثم سيطر على غوطة دمشق محكماً بذلك الحصار على المدينة.

ويبدو أن ما يهم السلطان فرج هو كرسي الحكم وليس المدينة أو الرعية، فما إن سمع بإشاعة مفادها أن الأمراء يريدون خلعه في مصر وتولية الأمير لاجين الجركسي بدلاً عنه حتى عاد مسرعاً إلى القاهرة تاركاً دمشق تقع تحت رحمة تيمورلنك، ومع ذلك قاتل أهلها قتالاً شديداً دفع تيمورلنك إلى التراجع والتظاهر بقبول الصلح، وبعد أخذ ورد قبل أهل دمشق عرض تيمورلنك، الذي بادر إلى منحهم الأمان، ودخل دمشق سنة 803هـــ = 1401م، فيم استمرت قلعتها بالمقاومة شهراً كاملاً، و لم ينفذ تيمورلنك ما وعد به أهل دمشق، فأهلك كثيراً منهم، ودكّ معالم حضارتها، وسمح لجنوده بنهبها وقتل وأسر أهلها، ثم أضرموا النار بالمدينة فأكلتها خلال ثلاثة أيام، وأضحت أطلالاً بالية. ثم انسحب منها عائداً إلى سمرقند بعد أن أقام فيها قرابة ثمانين يوماً[lvii].

ثالثاً ــ الحروب مع الأرمن:

هاجر الأرمن من بلاد أرمينيا الواقعة بين فارس والعراق والروم، وذلك بعد التوسعات السلجوقية في مواطنهم، فمنحتهم الإمبراطورية البيزنطية ضياعاً واسعة في كبادوكيا، ثم راحوا يبحثون عن موطن جديد بعد استمرار التمدد السلجوقي، فاتجهوا إلى أراضي قيليقيا متمركزين في الجهات المحيطة بملطية والرها وأنطاكية، ثم تحولوا فيما بعد إلى قوة كبيرة، واستطاعوا تشكيل مملكة أرمينية سنة 595هـــ = 1198م عُرفت باسم (مملكة أرمينيا الصغرى)، وكانت بزعامة ليون الثاني، وقد خضعت بداية للسلاجقة، فلما زالوا ثم ضعفت الإمبراطورية البيزنطية، استغل الأرمن هذه التغيرات فاستقلوا بمملكتهم.

وكانت سياسة الأرمن مع المماليك بشكل عام سلبية، إذ تحالفوا مع أعدائهم مغول فارس ضدهم، وكانوا يقفون مع الصليبيين، ثم فرضوا حصاراً اقتصادياً على دولة المماليك وأغلقوا في وجهها الطرق التجارية المؤدية إلى بلاد الشام(lviii).

وبسبب سياسة الأرمن المعادية لدولة المماليك؛ قرر الظاهر بيبرس مهاجمتهم، وحاول زعيمهم هيثوم الأول التفاوض مع بيبرس دون جدوى، ثم ذهب يستنجد بالمغول، فاستغل بيبرس غيابه وهاجم قيليقيا، وانساب جيشه فيها سنة 664هـ = 1266م وغنم منها غنائم ضخمة، فلما عاد هيثوم الأول وشاهد ما شاهد، رضخ إلى عقد اتفاقية مع بيبرس تنازل له فيها عن بعض القلاع، ثم اعتزل عن الحكم وخلفه ابنه ليون.

ثم انشغل بيبرس بحروبه عن هذه المملكة، وفي عام 673هـ = 1275م هاجمها ثانية هجوماً خاطفاً وفتح المصيصة وغنم منها غنائم ضخمة(lix).

ثم كان تحرير قلعة الروم؛ وهي غاية في الحصانة، وتقع على الضفة اليمنى للفرات في وسط بلاد المسلمين، وفيها مقام بطرك الأرمن خليفة المسيح عندهم ويسمونه: كتاغيكوس. وكان الملك الأشرف خليل يدرك تحالف الأرمن مع الصليبيين والمغول معاً، وكان يخطط لاجتياح العراق وتدمير من يحتلها من المغول، ولذلك قرر توجيه ضربة قاضية للأرمن من خلال فتح قلعة الروم التي صارت فيما بعد قلعة المسلمين.

وكان المماليك قد تركوا فتح هذه القلعة كما تركوا البيع وأماكن العبادة النصرانية، لكن أهل القلعة كما ذكر الأمير علم الدين الشجاعي، أصبحوا: «يُخادعون الجار، و يوادعون التتار بالنفس والمال، ويدلونهم على عورات المسلمين، وهم يظنون أنهم آمنون بقلعتهم»، و فوق ذلك، فإن الأرمن كانوا يشاركون في كل الجيوش الصليبية والمغولية التي كانت تهاجم المماليك، و لم يكن بينهم وبين الصليبيين أدنى فرق، فتحرك السلطان الأشرف خليل من القاهرة سنة 691 هـ = 1292م ووصل دمشق، ثم وصل إلى حماة، وهناك التقى جيش حماة بقيادة الملك المظفر وسافر الجميع إلى حلب فدخلوها، وبقي السلطان فيها أسبوعاً تفقد خلاله الجيش الإسلامي والاستعدادات العسكرية، ثم غادر حلب باتجاه قلعة الروم التي وصلها سنة 691هـ = 1292م، ونصب عليها المنجنيقات، وبعد حصار محكم، ومعارك دامية، استسلمت القلعة بعد 33 يوماً من الحصار.

وفي العام التالي 692 هـ = 1293م حضرت رسل الأرمن من لدن صاحب سيس (عاصمتهم الجديدة)، و تم الاتفاق على أن يُسلموا السلطان ثلاث قلاع هي بهنسا و مرعش وتل حمدون[lx].

أما السلطان حسام الدين لاجين؛ فكان يتربص الفرصة المناسبة لتوجيه ضربة قاضية للمغول، فلما استقرت أمور دولة المماليك الداخلية، أتته هذه الفرصة حين علم بانشغال غازان إيلخان المغول في فارس وحليف أرمينية بمحاربة خصومه في الشرق، فقرر توجيه ضربة للأرمن حلفاء المغول والصليبيين. وقد تم ذلك في جمادى الأولى سنة 697 هـ = 1298م عندما وجه السلطانُ الأميرَ بدر الدين بكتاش ومعه ثلاثة أمراء و 10000 فارس إلى عاصمة الأرمن سيس لتحريرها، وانضم إليهم عسكر صفد وحمص وبلاد الساحل وطرابلس وحماة، فأرسل صاحب سيس إلى السلطان يسأله العفو، فلم يُجبهُ لاجين إلى ذلك.

ثم توجهت هذه الجموع إلى حلب وانضم إليها الأمير علم الدين سنجر الدواداري من القاهرة، وخرجوا من حلب، وفي رمضان 697 هـ = 1298م تم تحرير قلعة مرعش وتل حمدون، وفي ذي القعدة حُررت قلعة حمّوص، ثم توجه الملك المظفر صاحب حماة والأمير سنجر الدواداري والأمير آق سنقر في بقية الجيش إلى نهر جيحان، ودخلوا بلاد سيس، وضربوا الحصار على قلعة نجيمة مدة 41 يوماً حتى سقطت في الشهر نفسه، وسقط معها أحد عشر حصناً للأرمن، فما كان من صاحب سيس الأرمني إلا أن أرسل مجدداً يسأل العفو، فقبل المماليك الاتفاق معه على أن يتنازل عن البلاد والحصون الواقعة إلى الجنوب من نهر جيحان، وحصون أخرى غيرها، فرضخ لذلك، ثم التزم بدفع 500000 درهم سنوياً للسلطان، ثم عيّن المماليك الأمير سيف الدين أسندمر حاكماً عاماً على بلاد الأرمن، وصارت عاصمته تل حمدون.

وفيما بعد، عندما أقدم زعيم المغول محمود غازان على غزو بلاد الشام سنة 699هـ = 1299م، تنكّر الأرمن للاتفاقية المذكورة، فاضطر المماليك إلى الانسحاب من المدن الأرمينية التي كانت في حوزتهم، فاستولى الأرمن عليها، ولم يكتفوا بهذا الغدر، بل ارتكبوا غدراً آخر حين انضموا ــ بقيادة ملكهم هيثوم بن ليفون ــ إلى غازان في غزوه لدمشق، حيث دخلوها وأحرقوا وقتلوا وأسروا.

وبعد هزيمة المغول في معركة شقحب سنة 702 هـ = 1303م عاد ملك الأرمن إلى دفع الجزية المفروضة عليه. وفي سنة 705 هـ = 1306م تأخر هيثوم ملك أرمينية في دفع الجزية،

فأرسل إليه الناصر عدة حملات عسكرية، فوعد هيثوم الناصر على إثرها بأنه سيؤدي الجزية بانتظام[lxi].

رابعاً ـــ العلاقات والمعارك مع النوبيين وشمالي أفريقيا والإمارات التركمانية:

النوبة مملكة مسيحية عاصمتها مدينة دنقلة التي تقع في أعالي النيل، وكانت تدين بالطاعة لسلطان مصر، وصارت تتسبب بالمشاكل للمماليك في عهد الظاهر بيبرس، الذي زاد فيه اعتداء النوبيين على حدود مصر، وقام ملكهم داود بالهجوم على جنوبي مصر عام 671هـــ = 1272م، وهاجم ميناء عيذاب على البحر الأحمر بهدف تهديد تجارة المماليك وقطع طريق الحج، فأعد بيبرس حملتين عسكريتين، استطاعت الثانية أن تخترق مملكة النوبة، مما اضطر ملكها داود إلى الهرب، فنصّب المماليك بدلاً عنه الملك شكندة، الذي تعهد بالطاعة للمماليك.

وقد حاول خلفاء شكندة أن ينقضوا العهد مع المماليك، فقام برك بالانتفاضة على الحكم المملوكي، ولكنه فشل، ثم ظهر سنة 685هـــ = 1286م الملك سيمامون، وكان يريد التخلص من التبعية للمماليك، فقرر الامتناع عن دفع الجزية لهم، فجهّز قلاوون حملتين خلال السنتين 686 – 688هـــ = 1287 – 1289م، واستطاع فيهما إخضاع بلاد النوبة[lxii].

وظل ملوك النوبة بعد ذلك يعبرون عن ولائهم للمماليك، ويحتكمون إلى السلطان كلما نشب نزاع بينهم، باستثناء الملك كرنبس الذي قلب ظهر المجن للمماليك، فأرسل له الناصر محمد بن قلاوون حملة لتأديبه، وفكّر بتحويل هذه المملكة إلى الإسلام، عندما أرسل أحد الأمراء النوبيين ـــ وكان مسلماً ـــ وهو عبد الله بن شنبو، وطلب تعيينه ملكاً على النوبة، وبالفعل تُوّج ملكاً عام 717هـــ = 1317م، فكان أول مسلم على مملكة النوبة، وتتالى الملوك المسلمون على عرش هذه المملكة، وتوالى دخول النوبيين في الإسلام، فلم تعد تشكل هذه المملكة خطراً على المماليك، باستثناء ما حدث عام 785هـــ = 1383م ـــ بعد أن استولى بنو كنز على السلطة في النوبة ـــ حين هاجموا أسوان ونهبوها[lxiii].

ونأتي إلى علاقة المماليك مع دول شمالي أفريقيا، الذين اتبعوا سياسة التقارب مع دولة المماليك عادّينها زعيمة للعالم الإسلامي، فحدث عام 711هـــ = 1311م أن زار الأمير أبو يحيى

زكريا الحفصي القاهرة مستنجداً بالناصر محمد بن قلاوون بأن يعيده إلى عرشه المسلوب، فجهّز الناصر حملة عسكرية استطاعت أن تسيطر على طرابلس، ثم تابعت الزحف نحو تونس وسيطرت عليها، ورفُعت الخطبة هناك باسم الناصر محمد، وظلت علاقات المماليك طيبة مع هذه البلدان.

أما المغرب الأقصى، فاقتصرت علاقاته مع المماليك على تبادل الرسل والهدايا نظراً لبعد المسافة بين البلدين، والتي لم تمنع من قيام تبادلات تجارية بين الطرفين[lxiv].

ونأتي إلى علاقة دولة المماليك مع الإمارات التركمانية، إذ كانت تعيش على الأطراف الشمالية للسلطنة المملوكية، في أعالي بلاد الشام والفرات وشرقي آسيا الصغرى، جماعات من شعوب مختلفة مثل الأرمن والكرج والأكراد والتركمان، وقد ربطتهم علاقات متقلبة بدولة المماليك، تراوحت بين التبعية والخضوع والثورة وفق الظروف الخاصة والعامة التي أحاطت بالمنطقة وشعوبها منذ منتصف القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي.

وقد أقام التركمان لأنفسهم إمارات على أطراف آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين، اشتهرت منها إمارات ذو القدر ورمضان وقرمان والأق قوينلو (الخروف الأبيض) والقراقوينلو (الخروف الأسود)، وكان من المفترض أن تكون هذه الإمارات ــ بحكم موقعها ــ على ولاء مع المماليك، ولكن ذلك لم يكن يحدث دائماً، وكثيراً ما استغلت الظروف السياسية للخروج على حكمهم، بل ومهاجمة أراضيهم، وكانت تستغل العوامل التالية:

ــ انشغال المماليك بالقضاء على انتفاضات بلاد الشام.

ــ تراجع ضغط تيمورلنك عن منطقة غربي آسيا.

ــ انهماك السلطان العثماني بالحروب.

وقد قام السلطان المؤيد شيخ بحملتين ضد هذه الإمارات، وكانت حروبه في مناطق الحدود الشمالية غير حاسمة، إذ جدّد التركمان تحركاتهم المعادية للسلطنة المملوكية في عهد خلفائه. وفي النصف الثاني من القرن التاسع الهجري = الخامس عشر الميلادي، أخذ التنافس المملوكي ــ العثماني شكل مساندة قوة أو أخرى من القوى التركمانية الواقعة على حدود الدولتين، وحدث قتال عدة مرات بين المماليك والإمارات التركمانية، ثم هدأت العلاقات إلى أن قضى العثمانيون على الدولة المملوكية[lxv].

خامساً ـــ العلاقات المملوكية العثمانية:

حرص العثمانيون على توثيق العلاقات الأخوية الإسلامية مع المراكز الإسلامية الأخرى، وخاصة دولة المماليك التي كانت تعد أقوى زعامة إسلامية آنذاك، فقام السلطان مراد بن أورخان بإرسال وفد خاص إلى مصر يبشره فيها بتحرير أدرنة من البيزنطيين عام 763هـــ =1362م. وحين استُشهد السلطان مراد ابن أورخان بضربة غادرة من جندي صليبي أثناء تفقده لجرحى معركة قوصوه (791هـــ =1389م)، كان لخبر استشهاده رنة حزن عميق في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وكان السلطان المملوكي برقوق من أوائل الذين أرسلوا وفداً للتعزية باستشهاده. وحين اقتحم تيمورلنك بغداد عاصمة الخلافة العباسية التي كانت آنذاك اسماً على غير مسمى، لم يكتف العثمانيون بإعلان تضامنهم مع الخليفة العباسي، بل اتخذوا موقفاً علنياً إلى جانبه، فاحتضنوا الأمير أحمد جلاي، أمير بغداد الذي التجأ إليهم، وأمدوه بالمعونة العسكرية والمادية للتصدي لتيمورلنك، واستعادة مركز الخلافة الإسلامية العباسية ببغداد منه، وأصبحت الدولة العثمانية حامية الخلافة العباسية بعد أن التجأ إليها الخليفة العباسي المتوكل على الله الأول فراراً من تيمورلنك، وقد مارس السلطان برقوق دوراً كبيراً في إقناع الخليفة العباسي بإسباغ لقب (سلطان الروم) على بايزيد، فاشتد حنق أوربا وتيمورلنك، إذ عدّوا هذا التكريم لبايزيد بمثابة اعتراف رسمي من أكبر سلطة دينية إسلامية في ذلك الوقت متمثلة في الخليفة العباسي، بسلطة بايزيد على الأجزاء الأوربية التي استولى عليها من البيزنطيين.

وحين فتح العثمانيون القسطنطينية، أرسل محمد الفاتح وفداً إلى مصر ينقل هذه البشرى إلى سلطان المماليك إينال شاه، وقد نقل ابن إياس في بدائع الزهور هذا المشهد لنا بقوله: «لما وصل وفد الفاتح، زفت البشائر بالقلعة، ونودي في القاهرة بالزينة، ثم إنّ السلطان أرسل رسولاً إلى ابن عثمان لتهنئته بالفتح». كما نقل ذلك ابن تغري بردي؛ وذكر أنّ وفد السلطان العثماني وصل إلى القاهرة في 23شوال سنة 856هـــ =1453م، ومعه الهدايا، فسُرّ السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم، ودُقّت البشائر لذلك، وزُيّنت القاهرة بسبب ذلك أياماً، وعمل السلطان الخدمة (الضيافة) بالحوش السلطاني في قلعة الجبل[lxvi].

ومن ناحية أخرى؛ كان تحت النفوذ المملوكي في منتصف القرن الثامن الهجري = الرابع عشر الميلادي إمارة صغيرة تعرف بإمارة ذي القادر أو القدر كما تقدم، وكانت هذه الإمارة محور الأساس في العلاقات العثمانية المملوكية؛ فمحمد الفاتح تزوج منهم كما تزوج بايزيد الثاني إحدى أميرات هذه الولاية وهي التي أنجبت له السلطان سليم الأول، وقام المماليك بتعيين وال على

الإمارة، وقام العثمانيون بتعيين والٍ لها بالمقابل، فتقاتل الطرفان وتغلب المماليك وقتلوا الوالي المعيّن من قبل العثمانيين، فتأثر العثمانيون، وكانت هذه الأحداث من بين الأسباب التي أدت إلى إثارة العلاقات بين المماليك والدولة العثمانية، وإن كان ذلك قليل الأهمية أمام غيره من الأحداث التي شملت المنطقة كلها.

ويوقع الكثير من الباحثين باللائمة في سوء هذه العلاقات على المماليك، ويذكرون من ذلك مسألة طرق مياه الحجاز، فالآبار والأحواض والبرك الواقعة على طريق الحج والتي يستقي منها الحجاج قد تعرضت للدمار والخراب، وأرسل محمد الفاتح سفيراً إلى السلطان المملوكي يقترح عليه تعمير وإصلاح ما خرب من هذه الأماكن ورصد أوقاف لها، إلا أن المماليك عدوا هذا الاقتراح بمثابة الإساءة إليهم وتدخلاً في شؤونهم الداخلية.

وبعد ظهور الخطر البرتغالي العاتي، وتوغل البرتغاليين في بلاد المسلمين حتى وصلوا إلى جدة على البحر الأحمر، تبين أن المماليك ليسوا في وضع يمكنهم من التصدي لهم ومقاومة سفنهم وأسلحتهم النارية، ولاسيما بعد أن دمّر البرتغاليون أسطولهم الذي أنشؤوه في البحر الأحمر بجهد جهيد سنة 915هـ = 1509م في معركة ديو البحرية، وإزاء هذا الوضع البائس استنجد السلطان المملوكي قانصوه الغوري بالسلطان العثماني طالباً منه المساعدة، وبالفعل لبّى السلطان بايزيد نداء المماليك وأرسل لهم مساعدات عسكرية مكوّنة من عشرات السفن والمدافع. وفي سنة 917هـ = 1511م أرسل العثمانيون مساعدات أخرى إلى المماليك ضمت 400 مدفع و 40 قنطار بارود، وبيّنت وثائق طوب قابي باستانبول أن العثمانيين أرسلوا أيضاً عدداً من البحّارة إلى السويس سنة 918هـ = 1512م لإنشاء السفن، وفضلاً عن هذا كانت مصر تعتمد على العثمانيين في الحصول على المواد الداخلة في صناعة السفن.

إذاً، أدرك العثمانيون خطر البرتغاليين، ولم يتهاونوا في مساعدة المماليك وحثهم على التصدي له، وخاصة أن الباحث التركي خليل إينالجيك أشار إلى أنّ العرب كانوا قلقين من الخطر البرتغالي الذي هدّد آنذاك عدن ومكة والمدينة، وهدف إلى «إخراج عظام الرسول ﷺ من قبره»[lxvii].

ونأتي إلى إشكالية مملوكية عثمانية أخرى؛ هي إشكالية سبب توجه سليم الأول إلى بلاد الشام ومصر؛ فلقد كانت علاقة المماليك بالعثمانيين جيدة، وحصلت أولى الصلات بين الدولتين في عهد الظاهر برقوق من جهة والسلطانين العثمانيين مراد الأول وبايزيد من جهة أخرى كما قدّمنا قبل أسطر، ثم حصلت بينهما روابط متينة في عهد السلطان محمد الفاتح والأشرف إينال المملوكي،

ولكن سرعان ما تعكر صفو العلاقات المملوكية العثمانية في عهد السلطان بايزيد الثاني، إذ حصل بينه وبين السلطان المملوكي قايتباي نوع من الخصومة بسبب أبناء إمارة ذي القدر كما مر.

وبعد سقوط الأندلس عام 897هـ = 1491م؛ هاجر بعض المسلمين إلى شمالي أفريقيا ولجأ بعضهم إلى أعمال الفداء في البحر المتوسط انتقاماً من النصارى، ولاحق الصليبيون المسلمين حتى سواحل بلاد المغرب وهددوا الفدائيين، فوقع المسلمون تحت التهديد الذي أقنعهم أنهم لن يتخلصوا من هذا العدو إلا بمجيء العثمانيين إلى بلادهم، وبخاصة أن سمعة هؤلاء قد ارتفعت لدى المسلمين جمعاء بسبب فتوحاتهم الواسعة، كما أن استيلاء البرتغاليين على عدن وعُمان عام 921هـ = 1515م كان حافزاً قوياً للتحرك العثماني نحو المنطقة وإلحاقها بهم حتى يستطيعوا إنقاذها من براثن الاستعمار البرتغالي، وخاصة أن هذا الاستعمار كان له دوره في إخراج المسلمين من الأندلس، إضافة إلى علاقة طيبة توطدت بين الصفويين حكام العراق وإيران والبرتغاليين المستعمرين.

هنا امتنع المماليك عن السماح لسير العثمانيين ضمن أملاكهم للوصول إلى البرتغاليين لمنازلتهم خوفاً على حكمهم ومصالحهم وخوفاً من جيرانهم، الذين قد يعدون السماح لدخول العثمانيين أراضي المماليك اعتداء عليهم وتطويقاً لهم، الأمر الذي حدا بالعثمانيين إلى شن الحرب عليهم.

أما الشعب في هذه المنطقة؛ فكان يخشى البرتغاليين الذين فعلوا الأفاعيل بإخوانهم في الأندلس، فصار يتمنى مجيء العثمانيين للوقوف في وجه أعداء الإسلام. ثم إن تصريحات العثمانيين الدائمة بأنهم خُدّام الإسلام وحماته قد جعل عدداً من الأمراء وسراة القوم في حكومة المماليك يرحلون إلى البر الأناضولي ويتصلون بالسلطان سليم ويدعونه للقيام بالعبء الملقى على عاتقه في قتال أعداء الإسلام، وأنهم بجانبه إذا ما فعل ذلك[lxviii].